
رسائل السلام
(١٤)
هكذا تكلم لقمان
أربعون حكمة علمية وعملية
د. نور الدين أبو لحية



هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب توضيح الكثير من الحقائق والقيم التي قد يقع الخطأ فيها، بسبب عدم اعتماد الرؤية الكونية التوحيدية التي يدل عليها العقل، كما تدل عليها النصوص المقدسة.

وهو يناقش تلك المغالطات التي تقع فيها أمثال تلك العقول، بطريقة تجمع بين الخطاب العقلي والتأثير العاطفي.. فالكتاب عبارة عن وصايا من أب لابنه، ولا يمكن للأب أن يبلغ وصاياه من دون أن يمزج بين العقل والعاطفة.. فالعاطفة تيسر للعقل استقبال الأفكار، حتى لا يقابلها بالجدل.

وذلك لا يعني ما يمارس في التأثير الخطابي من الاكتفاء التأثير العاطفي المجرد، فمعاذ الله أن تُبلغ الحقائق بعيدة عن أدلتها.. ولكن المراد من ذلك إبعادها عن الجدل الذي يبحث على الانتصار، لا على الوصول إلى الحقيقة.

وهو يعتمد نفس منهج لقمان عليه السلام في موعظته لابنه، والتي وردت في القرآن الكريم.. وورد فيها الكثير من الحقائق التي تم عرضها بطريقة ممتلئة بالحكمة.

ولذلك فإن هذا الكتاب يحاول إحياء سنة لقمان في الموعظة، حتى ينتهجه الآباء في تربيتهم لأبنائهم، والأساتذة في توجيهاتهم لتلاميذهم وطلبتهم، ذلك أن المناهج الخاطئة في تبليغ الحقائق قد تكون سببا للنفور منها.

رسائل السلام

(14)

هكذا تكلم لقمان

أربعون حكمة علمية وعملية

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1439 ـ 2018

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

يحاول هـذا الكتـاب توضـيح الكثـير من الحقـائق والقيم التي قد يقع الخطأ فيها، بسبب عـدم اعتمـاد الرؤيـة الكونيـة التوحيدية التي يدل عليها العقـل، كمـا تـدل عليها النصـوص المقدسة.

وهو يناقش تلك المغالطات الـتي تقـع فيهـا أمثـال تلـك العقـــول، بطريقـــة تجمـــع بين الخطـــاب العقلي والتـــأثير العاطفي.. فالكتاب عبارة عن وصايا من أب لابنـــه، ولا يمكن للأب أن يبلغ وصاياه من دون أن يمزج بين العقل والعاطفة.. فالعاطفـة تيسـر للعقـل اسـتقبال الأفكـار، حـتى لا يقابلهـا بالجدل.

وذلـك لا يعـني مـا يمـارس في التـأثير الخطـابي من الاكتفاء التأثير العاطفي المجرد، فمعاذ الله أن تُبلغ الحقـائق بعيدة عن أدلتها.. ولكن المـراد من ذلـك إبعادهـا عن الجـدل الذي يبحث على الانتصار، لا على الوصول إلى الحقيقة.

وهو يعتمد نفس منهج لقمان عليه السلام في موعظتـه لابنه، والتي وردت في القرآن الكريم.. وورد فيهـا الكثـير من الحقائق التي تم عرضها بطريقة ممتلئة بالحكمة.

ولذلك فإن هـذا الكتـاب يحـاول إحيـاء سـنة لقمـان في الموعظة، حتى ينتهجه الآباء في تربيتهم لأبنـائهم، والأسـاتذة في توجيهاتهم لتلاميذهم وطلبتهم، ذلك أن المنـاهج الخاطئـة في تبليغ الحقائق قد تكون سببا للنفور منها.

وهـو يتمـيز بتناولـه لأكـثر المسـائل الـتي لهـا علاقـة بالجوانب المختلفة من الحيـاة الفكريـة والدينيـة والسياسـية والاقتصادية والفنية وغيرها.. والتي على ضـوئها جميعـا يمكن تشـكيل رؤيـة تسـاعد على اتخـاذ المواقـف والقـرارات من القضايا المختلفة.

ويتميز بتناول تلك القضايا من زوايا مختلفة تجمع بين الرؤية الواقعية، والرؤية المثالية، وتحاول أن ترفع الواقع ليصل إلى عالم المثال الذي دعت إليه رسل الله، وتنزلت به هدايته لخلقه.

وهو يضع لذلك الكثير من المناهج العملية البسيطة التي تيسر تحقيق ذلك التحول من الواقع الآسن إلى الواقع المثالي، الذي تتحقق فيه هداية الله لعباده.

وهو من [الأربعينيات] التي نعتمد فيها عادة على ما يحيط بالمسائل المختلفة المرتبطة بالموضوع، وبطريقة يمكن أن يستفيد منها عامة الناس وخاصتهم، وباختصار شديد.

فالكتاب يحوي أربعين حكمة، كل حكمة خصصت لها مقالة قصيرة، يمكن أن تكون خطبة أو موعظة أو رسالة أو منشورا.. حتى تصل إلى أكبر عدد من القراء، مع العلم أن أكثر ما ورد فيها من معان، وباختصار، ورد مثله أو ما يدل عليه مطولا ومفصلا في كتب أخرى من هذه السلسلة أو غيرها.

التجديد

يا بني.. ربما تلومني لأني لم أحدثك من سـنين طويلـة، بل من آماد ممتدة، وعهود عراها البلى..

لا تلمني يا بني، فأنا لم أكن أتكلم كل تلك الفـترة، لأني كنت متفرغـا للسـماع.. ولا يمكن لأحـد أن يجمـع بين الكلام والسماع.

نعم يا بني.. فقد كنت أستمع للحياة، وهي تغـني أغانيهـا المطربـة أو المحزنـة.. وكنت أسـتمع للأحيـاء وهم يرقصـون على نغماتها.. وقد تلقيت من تلك الرؤية وذلك السماع حكما كثيرة.. فلا يمكن للحكيم أن يتلقى الحكمـة إلا بعـد أن يـدمن الصـمت، ويـدمن معـه الإصـغاء، ويـدمن معهمـا الرؤيـة والاعتبار..

ومـع ذلـك، فلا يمكن للحكيم أن يظـل صـامتا، فـأعظم الظلم أن نحبس الحكمـة بين زوايـا أفواهنـا وصـدورنا.. إننـا بذلك نقيدها كما نقيد العصفور الذي خلقه اللـه حـرا طليقـا.. بـل نقيـدها كمـا نقيـد قطـرات الغيث، لنحـول بينهـا وبين أن تروي الأرض، وتروي معها ظمأ الإنسان، وجوع الحياة.

بعد كل ذلك الزمن الذي نضجت فيه الحكمة في كياني، وتغلغلت معانيها في وجداني أُذن لي أن أحدثك، كمـا أذن لي أن أحدثك من قبل..

وسأحدثك عن أشياء كثيرة.. منها بعض ما ذكرته لك من قبل.. ولكني أحتاج الآن إلى صـياغة جديـدة لـه.. فلكـل زمن أسلوبه في الوعـظ، ولكـل زمن موسـيقاه الـتي يطـرب لهـا السامعون..

وبمـا أنـك الآن سـتنزل إلى زمن غـير الـذي كنت فيـه، وستعيش مع ناس غير الذين كنت تعيش معهم.. فإني أحتـاج أن أؤهلك لهذه الحياة الجديـدة.. فلا يمكن أن تعيش السـلام

مع الحياة الجديدة، ومع الأحياء الجدد ما لم تحفظ مــواعظي وتعيها كما وعيتها أول مرة.

لن أحــدثك عن القــديم المعــاد صــياغته فقــط.. وإنمــا سأحدثك معه عن جديد كثير.. جديد يتجـدد كـل يـوم.. فأصـخ سمعك لي كل يوم.

فنحن الآن في عصــر يختلــف كثــيرا عن العصــر الــذي حدثتك فيه أول مرة..

نحن الآن في عصــر يملــك شــيئا اســمه (التلفزيــون).. وآخر اسمه (الإنترنت).. وآخر اسمه (الصحافة).. وآخر اسمه (المذياع).. وغيرها كثير.

وكـل هـذه الأشـياء لم تكن موجـودة حين وعظتـك أول مرة.. ولهـذا لم أذكرهـا لـك.. ولـو كـانت موجـودة لـذكرتها.. فهي أخطر من أن تخلو موعظتي عنها.

أمام هذه الأشياء الجديدة الغريبة وبين يديها يجثــو آلاف آلاف آلاف البشر، بل يركعون جميعـا كمـا يركعـون أمـام رع وعشتار وأمـون واللات والعـزى.. وهم يتلقـون منهـا فكـرهم وسلوكهم وحياتهم.. وهم يسلمونها في أحيان كثيرة نفوسهم لتتصرف في توجيهها كما تشاء..

ولهــذا فــإن الكثــير منهم نســي مــواعظي القديمــة.. واستبدلني بدجالين كثيرين.. ولولا ذلك الصياح المتواصل من الحياة الجميلة، ومن أولئك الأحيـاء الـذين لا زالـوا يحتفظـون بقيم الحيـاة الجميلـة مـا كنت حـدثتك.. فأصـخ سـمعك لي.. فإني سأحدثك كما حدثتك أول مرة.

الحكمة

سـألتني ــ بـني ــ عن الحكمـة، ونعم مـا سـألت عنـه.. فالحكمة ثمرة كل علم، ونتيجة كل بحث، وخلاصة كل فكــر.. ومن لم ينل من علمه وبحثه وفكره الحكمـة، لم ينـل شـيئا.. وكان كالذي زرع ولم يحصد، أو حصد ولم يأكل.

فـإن أردت أن تحصــل عليهــا، فاشــحذ ذهنــك، ونشــط عقلك، واستعمل كل ما آتـاك اللـه من لطـائف.. فالحكمـة لا ينالها الكسالى، ولا يتحقق بها المقعدون.. بل هي هديــة اللــه للذين أعملوا عقولهم ولم يعطلوها، وأعملـوا جـوارحهم، فلم تقعد بهم عن أي خير.

والحكمة ثمرة التأمل العميق الـذي لا يستسـلم صـاحبه لأي هوى، ولا يجري مـع أي نزغـة، بـل يتثبت ويتـأنى، إلى أن يظهر الحق.. فلكـل حـق علامـات، ولكـل باطـل رايـات.. ولا يمكن للحكيم أن يستســلم لأي رايــة، مــا لم يــر علائم الحــق عليها.

والحكمة ثمرة التجربـة والتواصـل والتعـارف والحـوار.. فالحكيم ليس ذلك المستكبر الذي لا يقنـع إلا بمـا عنـده، بـل هو الذي يستفيد من كل رأي، ويضم إلى عقلـه كـل العقـول، فلا يقع فيما وقع فيـه غـيره من الشـباك، ولا يلـدغ من نفس الجحور التي لدغوا بها.

والحكمة ثمرة الإخلاص والصدق، ذلك أنها هبة من الله، والله لا يهب فضـله إلا الصـادقين المخلصـين الـذين تخلصـوا من كل أنانياتهم وأهوائهم، فصـاروا رمـوزا للحـق، ومصـاديق للهدى، ومنارات للسراط المستقيم.

والحكمة ثمرة المحبة.. ذلك أنك لن تصـل للحـق مـا لم تحبه.. فالحب هو الذي يجعلك مثل تلك الصفحة البيضاء التي تتقبل كل ما يكتبـه عليهـا الحـبيب.. واللـه لا يكتب في قلبـك الحكمة حتى تمتلئ محبة له، وتفنى به عمن سواه.

والحكمة ثمرة الاتباع الصادق للذين جعلهم الله وسائط الهدى لعباده.. فيستحيل على الحكمة أن تتنزل على الذين أبوا السجود لآدم.. ذلك أن آدم لم يكن سوى رمز للهداية والكمال.. فمن سجد له تحقق بالكمال، ومن تكبر عليه حصل له ما حصل لإبليس.

والحكمة ثمرة الصمت والسكون .. ذلك أن المضطربين الذين ملأوا الكون صراخا لن يصلوا لشيء.. فأصواتهم تحجب عنهم الحقائق، واضطرابهم يمنع عنهم استقرارها.

هذه ـ بني ـ منابع الحكمة .. فإن شئت أن تكون حكيما، فاعمل بها، ولا تغرنك كثرة العلوم، فالعلم الذي لا ينتج حكمة، ولا يفيد تربية، ولا يثمر ترفعا وسموا، لن يفيدك شيئا.. بل هو الجهل عينه.

وقد روي في الأخبار أن بعضهم صحب بعض المشايخ مدة طويلة، وبعد أن كتب الله لهما الفراق، سأل الشيخ تلميذه: منذ متى صحبتني؟.. فقال التلميذ: منذ ثلاثة وثلاثين سنة.. فقال الشيخ: فماذا تعلمت مني في هذه الفترة؟.. فقال التلميذ: ثماني مسائل.. فقال الشيخ: إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب عمري معك ولم تتعلم إلا ثماني مسائل؟ ! قال التلميذ: يا أستاذ لم أتعلم غيرها ولا أحب أن أكذب.. فقال الأستاذ: هات ما عندك لأسمع .

قال التلميذ: أما الأولى، فإني نظرت إلى الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوبا فإذا ذهب إلى القبر فارقه محبوبه، فجعلت الحسنات محبوبي فإذا دخلت القبر دخلت معي.

أما الثانية، فنظرت في قول الله عز وجل: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41)} (النازعات)، فعلمت أن قوله سبحانه وتعالى هو الحق، فأجهدت نفسي في دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى.

وأما الثالثة، فنظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل من معه شيء له قيمة ومقدار رفعه وحفظه ثم نظرت إلى قول اللـه عز وجل: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْـدَ اللَّهِ بَـاقٍ} (النحـل: 96)، فكلما وقع معي شيء له قيمة ومقدار وجهته إلى اللـه ليبقى عنده محفوظاً.

وأما الرابعة، فنظرت إلى هذا الخلق، فرأيت كـل واحـد منهم يرجـع إلى المـال وإلى الحسـب والشـرف والنسـب، فنظـرت فيهـا فـإذا هي لا شـيء ثم نظـرت إلى قـول اللـه تعـالى: {إِنَّ أَكْـرَمَكُمْ عِنْـدَ اللَّهِ أَتْقَـاكُمْ} (الحجـرات: 13)، فعملت في التقوى حتى أكون عند الله كريماً.

وأمـا الخامسـة، فنظـرت إلى هـذا الخلـق وهم يطعن بعضـهم في بعض، ويلعن بعضـهم بعضـاً، وأصـل هـذا كلـه الحسـد، ثم نظـرت إلى قـول اللـه عـز وجـل: {نَحْنُ قَسَـمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا} (الزخـرف: 32)، فـتركت الحسـد، وعلمت أن القسـمة من عنـد اللـه سـبحانه وتعـالى فتركت عداوة الخلق عني.

وأما السادسـة، فنظـرت إلى هـذا الخلـق يبغي بعضـهم على بعض، ويقاتل بعضهم بعضاً فـرجعت إلى قـول اللـه عـز وجل: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَـدُوٌّ فَاتَّخِـذُوهُ عَـدُوّاً} (فـاطر: 6)، فعاديته وحده واجتهدت في أخذ حـذري منـه لأن اللـه تعـالى شهد عليه أنه عدو لي، فتركت عداوة الخلق غيره.

وأما السابعة، فنظرت إلى هذا الخلق، فرأيت كل واحـد منهم يطلب هذه الكسرة، فيذل فيها نفسـه، ويـدخل فيمـا لا يحـل لـه، ثم نظـرت إلى قولـه تعـالى: {وَمَـا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} (هـود: 6)، فعلمت أني واحـد من هذه الدواب التي على الله رزقها، فاشـتغلت بمـا للـه تعـالى علي وتركت ما لي عنده.

وأمـا الثامنـة، فنظـرت إلى هـذا الخلـق فـرأيتهم كلهم متوكلين على مخلوق .. هذا على ضـيعته .. وهـذا على صـحة

بدنه .. وكل مخلوق متوكل على مخلـوق مثلـه، فـرجعت إلى قولـه تعـالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُـوَ حَسْـبُهُ} (الطلاق: 3)، فتوكلت على الله عز وجل فهو حسبي.

هذه ـ بني ـ بعض ثمار الحكمة التي قطفها هـذا التلميـذ النجيب من خلال صحبته لشيخه، فاحرص على أن يكـون لـك مثلها، أو احرص على أن تزيـد عليهـا، فـالعلم الـذي لا يطهـر نفسك، ولا يسمو بروحك لن يزيدك من حقيقتك إلا بعدا.

وإياك ـ بني ـ أن تتصور ني أحرضـك على تـرك العلم أو ترك الاستكثار منه.. معاذ الله أن أفعل ذلك.. فالحكمة ثمـرة للعلم، وكلما استكثرت منه كثرت لديك ثمار الحكمة.. ولكني أحذرك من أن يكون مرادك من العلم الاستكثار المجرد، فهو لن ينفعك.. بل لا ينفعك منه إلا ما أردت بـه الحـق والخـير.. فبهما وحـدهما تتحقـق بحقيقتـك، وبهمـا وحـدهما تـرقى إلى مراتب الكمال التي هيئت لك.

شبهات

سألتني ــ بني ــ فيما مضى من الأيام والسنين عن الكثير من الشبهات، وقد أجبتك عنها بما أطاق عقلي أن يجيب، ولست أدري هل كانت إجابتي كافية لعقلك أم لم تكن؛ فمن الصعب لعقلي أن يدرك بدقة ما في عقلك، ولا محل الشبهة فيه، ولا المفاتيح التي تحلها.

لذلك أذكر لك شيئا قد ينفعك في إزالة تلك الشبهات من أساسها، ولن تعود حينها بحاجة لي ولا لغيري.. فالله الذي أتاح لتلك الشبهات أن تجد محلا لها في عقلك، أتاح لك كذلك الكثير من الأدوية التي تزيل مادتها، وتطهر عقلك وقلبك منها ومن آثارها، ومن غير مصدر خارجي.

وأول تلك الأدوية أن تعلم مصدر الشبهات.. فإذا عرفته عرفت الأدوية التي تقاومه، فنحن لا يمكننا أن نعرف كيفية مقاومة الداء في أجسادنا ما لم نعرف نوع الجراثيم التي تغزوه، والفيروسات التي تحول بينه وبين التمتع بالصحة.

وقد أخبرنا ربنا بأن المصدر الأكبر للغواية والضلال والشقاء هو إبليس، ذلك الذي يبحث في قلوبنا عن محل ليرسل من خلاله الوساوس والشبهات التي قد نتصور أنها وليدة عقلنا الباحث، بينما هي في الحقيقة ليست سوى إملاءات شيطانية كتبها في قلوبنا.

لقد قال تعالى يصف تهديد الشيطان بتحقيق ذلك: { قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [الحجر: 39، 40]

فهاتان الآيتان الكريمتان تصفان بدقة كل المنابع التي تصدر منها الشبهات، سواء كانت شبهات علمية أو فلسفية أو نفسية أو اجتماعية.. أو لمعت بأي بريق، أو ضمخت بأي عطر.. فهي جميعا وساوس شيطانية، استطاع الشيطان بحيله ودهائه وخبرته بالإنسان أن يحولها إلى أمور مستساغة

يمكن لمن لم يستعمل عقله بالطريقة الصحيحة أن تمر عليه، وتؤثر فيه.

والآيتان الكريمتان تبينان أن المنهج الذي اعتمده الشيطان لترسيخ تلك الشبهات هو منهج التزيين والإغواء، وهو لا يعني أن الشيء المزين يحمل أي حقيقة جمالية، ولكنه يعني أن ذلك المزين وضع بصورة بحيث تُقبل عليه العين، أو يقبل عليه الذوق، ثم يقع الإنسان فريسة له بعد ذلك، مثلما يقع المدمن فريسة لذلك الشراب، أو تلك المخدرات التي استعملها مرات عديدة إلى أن صارت متحكمة فيه.

ولذلك أخبر الله تعالى أن من تزيينات الشيطان للمشركين قتل أولادهم، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } [الأنعام: 137]

فمع أن هذه الظاهرة لا تتناسب أبدا مع ما جبل عليه الإنسان من قيم الرحمة والحنان، وخصوصا على الأولاد إلا أن الشيطان عبر أدواته المختلفة، استطاع أن يجعل من ذلك التصرف سلوكا عاديا طبيعيا، أقره المجتمع، وراح يجد من يدافع عنه.

ولا نستغرب هذا، فهناك من راحوا يضعون النظريات العلمية التي تساند التمييز العنصري، أو تحض على العنف والإرهاب وكل أنواع الجرائم.. وكل ذلك بشبهات ينشرونها، سرعان ما تجد العقول التي تصدقها، وتعتقد بما فيها.

وأنت تعرف يا بني ما فعل النازيون والمستعمرون والمجرمون على مدار التاريخ.. فهم لم يتحركوا وفق العقل الإنساني السليم الذي جبلنا الله عليه، وإنما تحركوا وفق تلك التعديلات التي أجراها الشيطان بفعل الوساوس التي يوسوس بها، والتزيينات التي يزخرف بها الباطل ليحوله إلى

حق.

ولذلك لا تنظر يا بني لتلك التزيينات التي زينت بها الشبهات، ولا الزخارف التي طليت بها، فهي ليست سوى زخارف أملتها الشياطين على أوليائها.. لقد قال الله تعالى يذكر ذلك: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [الأنعام: 112]، وقال: { وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام: 121]

لذلك أدعوك يا بني بدل أن تجري وراء الشبهات للرد عليها، أن تعيد عقلك إلى وعيه وإنسانيته وفطرته السليمة، لأن بعض من استحوذ الشيطان على عقولهم، صاروا منغلقين تماما، يرون الحجج أمامهم رأي العين، لكنهم لا يبصرونها، لأن الشيطان سد منافذ بصائرهم، وأخرجهم من إنسانيتهم، واستحوذ عليهم.

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ} [المجادلة: 19]، ثم ذكر أن هؤلاء لم يعد فيهم شيء من الإنسانية، وإنما تحولوا تحولا تاما إلا شياطين، فقال: {أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [المجادلة: 19]

ثم ذكر صفاتهم الكبرى التي يعرفون من خلالها، فقال: { إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ } [المجادلة: 20]

فالصفة الكبرى لهؤلاء الذين خرجوا من إنسانيتهم، وتحولوا إلى حزب الشيطان، هو محادة الله ورسوله.. والاعتراض على الله ورسوله.. وسوء الأدب مع الله ورسوله.. وتوهم أن عقولهم أعلم بالحقائق من الله ورسوله..

وهم في الحقيقة يرددون نفس مقولة الشيطان: {أَنَا

خَيْـرٌ مِنْـهُ} [الأعـراف: 12]، ولكنهم لا يقولونهـا لآدم عليـه السلام، وإنما يقولونها لله ورسوله.

لذلك أنصحك يا بني أن تعيد مداركك إليك، وأن تخلصـها من استحواذ الشـيطان عليهـا، لأنـك يمكن أن تـرى الحقـائق من غير بصـر، ولا أن تسـمعها من غـير أذن، وأول مـا يفعلـه الشـيطان هـو الاسـتيلاء على هـذه المـدارك، حـتى يصـبح الإنسان أضل من الأنعام، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَـا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُـونَ بِهَـا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْـمَعُونَ بِهَـا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَـامِ بَـلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: 179]

هذه يا بني حقيقة كل تلك الشـبهات الـتي كنت توردهـا علي كل حين.. لذلك أوصيك بأن تترك الانشغال بها، وانشغل بما يبعد الشيطان عنـك، ويجعلـه يهـرب بجنـوده من احتلالـه لمراكز الإدراك فيك.

وقد ذكر القرآن الكريم طريقة ذلك، وهي ذكر الله، لأن الشيطان لا يستحوذ على الإنسان إلا بعد نسـيانه لـذكر اللـه، كما قال تعالى: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْـرَ اللَّهِ } [المجادلة: 19]

ولذلك فإن الناسي لله، ليس ناسيا له فقط، وإنما ناسيا لنفسه أيضا، ذلك أنه لا قيام له إلا بالله، ولا حفـظ لـه إلا بـه، فـإذا ابتعـد عنـه صـار غرضـا لكـل السـهام.. وأولهـا سـهام شياطين الإنس والجن، كما قـال تعـالى: {وَلَا تَكُونُـوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِـقُونَ} [الحشـر: 19]

ولذلك كان الطريق الصـحيح للهـرب من الشـيطان هـو الهرب إلى الله.. { فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَـذِيرٌ مُبِينٌ} [الذاريات: 50]

فلا يمكنـك مدافعـة الشـيطان بنفسـك، ولا بعقلـك، ولا بحزبك، ولا بأي جهة.. فالشيطان قد توعـد أن يأتيـك من كـل

الجهات، حتى تلك الجهات التي تتصور أنها معك ضده، قال تعالى: { قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف: 16، 17]

لذلك كان الحل الأجدى لك هو الرجوع إلى الله والفرار إليه، والتوكل عليه، فقد أخبر الله تعالى أنه {لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } [النحل: 99، 100]

وقد كتب بعض المريدين لشيخه يذكر له بعض تلك الوساوس التي كنت تشكو لي منها كل حين، فكتب له شيخه يقول: (لا تشتغل بها.. واشتغل باللّه يردها عنك)

ثم قال له: (لقد غلط في هذا الأمر خلق كثير، واشتغلوا بمن آذاهم، فطال الأذى مع الإثم، ولو أنهم رجعوا إلى اللّه لكفاهم أمرهم ولردهم عنهم)

وقال آخر لمريده: (الشيطان كلب، إن اشتغلت بمقاومته مزق الإهاب وقطع الثياب، وإن رجعت إلى ربك صرفه عنك برفق)

وقال آخر: (إن كان هو يرانا من حيث لا نراه، فاللّه يراه من حيث لا يرى اللّه، فاستعن باللّه عليه)

وقال آخر: (ومن عرف اللّه ذاب الشيطان من نوره فلم يبق يعرف إلا اللّه)

وقال آخر: (نحن قوم لا نعرف الشيطان)، فقيل له: أو ليس قد ذكره اللّه في كتابه؟ قال: (أجل، ولكن اشتغلنا باللّه فكفانا أمره حتى نسيناه)

وقال آخر: (عداوة العدو حقّا هي اشتغالك بمحبة الحبيب حقّا، فإذا اشتغلت بعداوة العدو فاتتك محبة الحبيب ونال عدوك مراده منك)

وهكذا افعل يا بني .. فكلما خطر عليك خـاطر سـوء، أو وردت عليك شبهة.. اجلس بين يدي الله، واسأله أن يصـرفها عنك، وأن يردك إليه ردا جميلا، وأن يصرف عنـك الـذي يريـد أن يحجبك عن الله، وعن حقيقته.. وسترى حينها كيـف تـزال الشبهة، لا بدليل عقلي، ولا بنص نقلي، وإنما بنور يقذفه اللـه في قلبـك تـرى بـه الحقيقـة رأي العين.. ولا يمكن لمن يـرى شيئا أن يطلب الدليل عليه.

شهوات

سألتني ـ بني ـ عن الشهوات، وذكرت لي أنها المصيدة التي أوقع بها الشيطان سهمه من بني آدم، فغواهم وأرداهم وأهلكهم، وأنساهم إنسانيتهم، كما أنساهم ربهم، فتحولوا مثل تلك الشاة التي يجرها الجزار إلى المذبح بحفنة شعير، أو حزمة حشيش.

ثم طلبت مني أن أعطيك الترياق الذي تقضي به عليها، حتى لا يطمع فيك الشيطان وجنوده الذين حولهم إلى صفه، فأصبحوا سدنة لمعبده، وعبيدا لسلطانه.

وكما أوافقك يا بني في حديثك الأول، فإني لا أوافقك في الثاني، ذلك أن محال الشهوات التي استغلها الشيطان ليست سوى تلك اللطائف الجميلة التي زود الله بها روح الإنسان، ليرتقي بها في سلم الكمال.

ولذلك كان القضاء عليها قضاء على حقيقة الإنسان نفسه، ونحن لم نطالب بقتل حقائقنا، وإنما طولبنا بالرقي بها..

نحن لم نُطالب بوقف أجهزة هضمنا عن عملها، لكونها سببا في شهوة المطعم، ولكنا طولبنا بأن نعرف نوع الطعام الذي نأكله، ومواقيت ذلك وآدابه ومقاديره ليتناسب مع إنسانيتنا وكرامتنا وحقيقتنا.. حتى لا تصبح تلك الأجهزة حبالا نخنق بها أنفسنا، ونقضي بها على وجودنا.

وهذا ما يفعله الشيطان الذي يضع أغلاله في أعناق بني آدم عندما لا يحسنون التعامل مع الشهوات، أو عندما يوجهونها خلاف الوجهة التي تقتضيها طبيعتهم.

فالله تعالى وضع فينا الحرص، وجبلنا عليه، لنستعمله في الحفاظ على أنفسنا، وعدم الزج بها في المهالك، ولنستعمله في حفظ من كلفنا بحفظه، وتوفير كل ما يحتاجه

له..

ولذلك كان الحرص وسيلة من وسائل الصلاح وأداء التكاليف، فلا يمكن أن يجاهد نفسه من لم يكن حريصا عليها وعلى مصالحها..

ولكن الحرص نفسه قد يتحول إلى غل يقتل روح الإنسان، مثلما يتحول الطعام إلى سم يقضي عليه.. وذلك إذا خرج عن غايته، وتحول من حرص إلى شره وبخل وأنانية .. حينها لا يكتفي الحريص بتحقيق مصالحه، وإنما يذهب إلى مصالح غيره، ليضمها إلى مصالحه.

ولذلك فإن المشكلة ليست فيما وهبنا الله من طاقات، وإنما في ذلك الاستخدام السيء لها، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك في بعض مواعظه، فقال: (إنما أخشى عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من بركات الأرض)، فقام رجل فقال: يا رسول الله، أويأتي الخير بالشر؟ فقال له رسول الله ﷺ: (إن الخير لا يأتي إلا بالخير، وإنه كلما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضر، كلما أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها، استقبلت الشمس، فثلطت، ثم رتعت، وإن هذا المال خضرة حلوة، ونعم صاحب المسلم لمن أخذه بحقه، فجعله في سبيل الله، واليتامى والمساكين وابن السبيل، ومن لم يأخذه بحقه، فهو كالآكل الذي لا يشبع، ويكون عليه شهيدا يوم القيامة)[1]

وهكذا ـ يا بني ـ كل الشهوات، فمن عرف كيف يتعامل معها ارتقى بها إلى المراتب العليا في الكمال، ومن قصر في ذلك نزلت به إلى الدركات.

ألا ترى أن الحب شيء واحد، ولذته واحدة.. لكن من الناس من يوجهه إلى صور المخلوقين يفنى فيها، ويستغرق في عبوديته لها.. ويتعذب بذلك كل أصناف العذاب، كما قال بعضهم يصف ذلك:

[1] () صحيح البخاري 4/26 ح(2842).

ألا ما الهوى والحب … يذل به طوع اللسان

ولكنه شيء قضى … هو الموت أو شيء

فأوله سقم وآخره … وأوسطه شوق يشف

وروع وتسهيد وهم … ووجد على وجد يزيد

لكن من النـاس من يـترفع عن أن يصـير مغلـولا في سجون الصور، بـل يـرتقي ببصـيرته إلى المصـور، لـيرى من عوالم الكمال والجمال ما لا يخطر على بال المسـجونين في سجون الشهوات الدنية.

وحين يـرتقي إلى ذلـك يكتشـف لـذة الحب الحقيقي، ويشرب من كأسه، فتجتمـع لديـه اللـذة من أصـفى منابعهـا، ويتجنب كـل ذلـك الهم والحسـرة الـتي يعـاني منهـا المسـتغرقون في الشـهوات الـتي تفرضـها عليهم أبصـارهم، وتحجبهم بها عن بصائرهم.

والغـافلون عنـدما يـرون أولئـك المـترفعين بشـهواتهم، يحزنـون عليهم، ويتصـورون أنهم يتـألمون لـذلك، وهم لا يعلمون أنه لا يمكن مقارنة ما هم فيه من لذة وسـعادة، بـأي لذة أخرى.

وقد قـال شـاعرهم مقارنـا بين تلـك اللـذات المحـدودة القصـيرة الـتي كـان يجـدها في سـجن الأنـا، وتلـك اللـذات الجديدة التي صار يعيشها عندما رحل إلى عالم الحقائق:

كانت لقلبي أهواء … فاستجمعت مذ رأتك العين

فصار يحسدني من … وصرت مولى الورى مذ

تركت للناس دنياهم … شغلاً بذكرك يا ديني ودنيائي

وقال آخر معبرا عن ذلـك، وعن معاناتـه مـع الشـهوات المنغصـة، وتنعمـه بالشـهوات الحقيقيـة الصـافية الـتي لم تكدرها أيادي الشياطين:

كان يسبى القلب فى ... بل تسعون نفساً

يهيم بهذا ثم يأْلف ... ويسلوهم من فوره

وقد كان قلبى ضائعاً ... فكان بحب الخلق

فلَما دعا قلبى هواك ... فلست أَراه عن

حرمت الأمانى منك إِن ... وإِن كنت فى الدنيا

وإِن كان شيء فى ... يقرَّ به القلب

ولهـذا كـانت معرفـة اللـه والتواصـل معـه، من أعظم اللذات التي لا يمكن مقارنتهـا بتلـك اللعب الـتي يشـتغل بهـا الأطفال:

من عرف الله ... معرفة الله

ما يصنع العبد ... والعز كل العز

ولذلك قال ذلك الصـالح: (نحن واللـه الملـوك الأغنيـاء، نحن الذين قد تعجلنا الراحة في الدنيا، لا نبالي على أي حـال أصبحنا وأمسينا إذا أطعنا الله عز وجل)

وقال آخر: (ما تنعم المتنعمون بمثل ذكر الله)

وقال بعضهم لبعض الملوك، عندما طلب منه أن يسـأله بعض حاجـات الـدنيا: (أو تقـول لي هـذا ولي عبـدان همـا سيداك)، فقال الملك متعجبـا: (ومن همـا؟)، قـال: (الحـرص والهوى، فقد غلبتهما وغلباك، وملكتهما وملكاك)

وطلب بعض المريـدين من شـيخه أن يوصـيه، فقـال: (كن ملكا في الـدنيا تكن ملكـا في الآخـرة)، فقـال المريـد: (وكيف أفعـل ذلـك؟) فقـال: (ازهـد في الـدنيا تكن ملكـا في الآخرة)

هذه وصيتي بني إليك، لتعلم كيف تتعامـل مـع لطائفـك، وترتقي بها إلى تلك العوالم الجميلة الـتي هـيئت لهـا.. فنحن لم ننزل إلى هـذه الأرض، لننغمس في مسـتنقعاتها، ونـذوب في طينها، لنتحول حجارة من حجارتها، وإنما نزلنا إليها لنشم

عطر نسيمها، ونهتدي بها إلى عوالم الجمال، بعـد أن نتحـول إلى أزهـار عطـرة، فلا يسـكن الجنـان غـير الزهـور.. أمـا الحجارة، فقد أخبر الله تعـالى عن محلهـا، فقـال: { فَـإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَـا النَّاسُ وَالْحِجَـارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } [البقرة: 24]

والبشر الـذين أدمنـوا على الشـهوات الدنيـة، واختلطت بدمائهم وعروقهم، ليسوا أقل قسـوة من الحجـارة، ذلـك أن تلك الشهوات هي الغشاوة الـتي غشـت على بصـيرتهم، فلم يروا الحقائق، ولم يشموا عطورها الجميلة.. ولـذلك بـدل أن يسيروا إلى جنة اللـذات الحقيقيـة، سـاروا إلى جهنم اللـذات المزيفة.

يـا بــني .. لا يمكنــك أن تجمــع بين دعوتــك للحقيقــة ودعوتــك لنفســك.. ولا دفاعــك عن الحقيقــة ودفاعــك عن نفسك.. فعلامة صدقك مع الحقيقة ذوبانك فيها، وفناؤك فناء تاما في جمالها وكمالها وبهائها بحيث لا ترى غيرها، ولـو كـان ذلك المرئي نفسك.

ألم تعلم يا بـني مـا قالـه رسـول اللـه ﷺ لـذلك الرجـل الذي ذكر له حبه له، وأنه يتجاوز كل شيء إلا نفسه؟

لقد قال له: (لا! والـذي نفسـي بيـده، حـتى أكـون أحبَّ إليك من نفسك)[1]

أرأيت .. لقـد دعـاه رسـول اللـه ﷺ إلى أن يتجـاوز في حبه له نفسه أيضا، لأنه لا يمكن أن يجمع أحد بين ذلك الحب المقدس، وحب النفس..

فلا يمكن رؤيــة الجمــال المحمــدي ورؤيــة النفس في وقت واحد..

فرؤيـة النفس حجـاب، والتعلـق بهـا قيـد، والركـون لهـا سـجن، والانشـغال بهـا وبمطالبهـا همـة دنيـة تمنـع من تلـك الرحلـة الجميلـة الـتي تطـير بهـا الـروح إلى عـوالم الكمـال المهيأة لها.

يا بني .. لا تظنن أن الفناء عن نفسك، هـروب منهـا، أو تحقير لها، أو نزول بها إلى عوالم العدم المظلمة..

كلا .. فمعاذ الله أن يطلب رسول الله ﷺ من محبيـه أن يفعلوا ذلك..

وإنما الفناء عن النفس ارتقاء بها.. ذلك أنــه لا يمكن أن

---

[1] () رواه البخاري 6/ 2445 (6257)

يرتقي أحد، وهو ينظر إلى مرآة نفسه، بكل نرجسية وعشـق وإعجاب ..

فهل رأيت في الدنيا من وصل إلى الكمال، وهـو معجب بنفسه، يجثو أمام محرابها مصليا خاشعا؟

وهــل رأيت أحــدا ارتقى في مــراتب الكمــال العلمي والعملي، وهــو فــرح بمــا عنــده من العلم، مزهــو بأعمالــه، مستغرق في الإعجاب بها؟

كلا .. ومعاذ الله أن تتاح تلك المراتب الرفيعة لمن هــذا حاله.. فأول ما يتجاوزه الصديقون أنفسهم، حيث يلقونها في عوالم الفناء، ليرتدوا حلة الحقيقة، ويذوبوا في جمالها.

وحين ذاك تكســر أوانيهم لتظهــر معــانيهم.. فــالأواني حجاب عن المعاني، ولا يمكن أن تصل للمعاني، وأنت متعلق بالأواني.. وأول الأواني نفسك.

لقد قال بعض الحكماء معبرا عن الجرائم الـتي يرتكبهـا من ينظر إلى نفسه، وينشغل بها عن النظر للحقيقـة والفنـاء فيها: (أصـل كـل معصـية وغفلـة وشـهوة الرضـا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عـدم الرضـا منـك عنهـا، ولأن تصحب جـاهلا لا يرضـى عن نفسـه خـير لـك من أن تصـحب عالماً يرضى عن نفسه فأي علم لعـالمٍ يرضـى عن نفسـه ؟ وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه ؟)

هذا ما قاله هذا الحكيم، وهذا ما يقوله عقلك وفطرتك.. فنفسـك حجابـك.. ولا يمكن أن تصـل إلى روحـك الـتي هي محل سرك، وأنت مشغول بالنظر إلى نفسك.

يا بني .. لا تظنن أني أدعوك لأن تفعل ما فعله الرهبـان الذين راحوا يعذبون أجسادهم، ليقمعوا أنفسهم.. فمعاذ اللــه أن أدعوك لتزدري نعم الله عليك، أو تخون أمانة هذا الجســد الذي أودعه الله عندك، فلا يمكن لحياتك أن تستقر أو تستمر وأنت تعذب جسدك..

ما أردت يا بني إلا شيئا واحدا، وهو ألا تنشغل بجسدك ومطالبه، ولا بنفسك ومطالبها، فمطالب نفسك لا تنتهي، وقد قال رسول الله ﷺ: (لو كان لابن آدم واديان من مال، لابتغى لهما ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب)[1]

ولهذا فإن أول ما تسد به تلك المطالب الدنية هي الترفع للمراقي العالية، التي تجعلك تنظر بسخرية لأولئك الذين يقضون أعمارهم في ملء دلاء أنفسهم المثقوبة، والتي لن تملأها بحار الدنيا.

يا بني .. هل تتصور أن أولئك السحرة الذين آثروا الصلبان على عزة فرعون كانوا ينظرون إلى أنفسهم؟

كلا فلو فعلوا ذلك، لما قالوا لفرعون بتلك العزة الإيمانية: {لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى } [طه: 72، 73]

لقد قالوها بكل عزة، وفي مواجهة أكبر طاغوت، لأنهم حينها لم ينظروا إلى نفوسهم وضعفها وشهواتها وقصورها، وإنما كانوا ينظرون لمن هو خير وأبقى، فلذلك استطاعوا أن يتحولوا إلى بركان ثائر، هز أركان الطاغوت.

لذلك لم يكن النظر إلى النفس حجابا عن الحقيقة فقط، بل كان أيضا حجابا عن القيم العظيمة المرتبطة بها..

فالتضحية والإيثار هي أول المطالب التي تطالبك بها القيم.. ولا يمكن لمن يرى نفسه، ويعجب بها، ويدعو لها، ويدافع عنها، أن يقدم أي تضحية، أو أي إيثار، وكيف يفعل ذلك، وهو لا يتقدم ولا يتأخر إلا تنفيذا لمطالبها، ورضوخا لأهوائها.

---

[1] ()صحيح البخاري 8/92 ح(6436)، مسلم (1808).

دجل

سألتني بـني عن الـدجال الـذي حـذر منـه كـل الأنبيـاء.. وعن زمانـه، وعن الخـوارق الـتي يـأتي بهـا، والبشـر الـذين يضلهم.

وأنا لا أدعوك لتكـف عن سـؤالك عنـه، ولا لـترك الحـذر منه، فمعاذ الله أن أتجرأ؛ فـأعقب على مـا ذكـروه، أو أهـون منه، أو أحقر من شأنك.

ولكـني أنبئـك بـأن أولئـك الأنبيـاء الـذين حـذروك من الدجال، الذي قد يدركك زمانه، وقد لا يدركك، حـذروك أيضـا من دجالين كثيرين لا يخلو منهم عصر من العصور[1] ..

ولــذلك كــان الأهم من الســؤال عن الــدجال وزمانــه والخوارق التي يأتي بها، السـؤال عن المسـالك الـتي يسـلك بها أولئك الدجالون الكثيرون إلى قلبك ودينـك، ليبعـدوك عن ربك، وعن حقيقتك.

فاسـمع ــ بـني ــ لتحـذيراتي.. فأنـا لم أقلهـا من عنـد نفسـي، وإنمـا سـمعتها من كلمـات الأنبيـاء والصـديقين .. وقرأتهـا في كلمـات ربي المقدسـة الـتي امتلأت بالتحـذير منهم، ومن فتنهم.

اسمع يا بني .. إن أول الدجالين، وأخطـرهم ذلـك الـذي يشوه اللـه في عقلـك وقلبـك، ويملـؤك بالخيـالات الفاسـدة، فتتوهم الله جرما من الأجرام، أو وثنا من الأوثان.. فتقـع في الشرك.. فالله لا تحده الحدود، ولا يحل في مكان، ولا يشـبه خلقه بأي وجه من الوجوه.

[1] () من الأمثلة على ذلك ما ورد في الحديث من قوله ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى يقتتل فئتان فيكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة ولا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريبا من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله) (رواه البخاري 3609، ومسلم 157، وأبو داود 4333، والترمذي 2218، وأحمد 7187)

وقد روي أن بعض الصديقين ذكر له بعض ما يقوله الدجالون الذين يتبعون المتشابه، وينشرون الوثنية في أمة رسول الله ﷺ، فقال: (سبحان من لا يعلم أحد كيف هو إلا هو، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11] ،لا يحد ولا يحس ولا يجس ولا تدركه الأبصار ولا الحواس ولا يحيط به شيء ولا جسم ولا صورة ولا تخطيط ولا تحديد)[1]

وقال: (إن الله تعالى لا يشبهه شيء، أي فحشٍ أو خنى أعظمُ من قولٍ من يصف خالق الأشياء بجسم أو صورة أو بخلقة أو بتحديد وأعضاء، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)[2]

ولذلك احذر بني من هؤلاء.. واعتصم بكتاب الله، فقد تجلى الله تعالى لخلقه في كتابه ليعرفوه.. ولا تبحث عن معرفة الذات، فإنك لن تقدر قدرها.. واكتف بما ذكره ربك من أسمائه الحسنى، وصفاته العليا، ففيها الغنى والكفاية.

ولا تبحث ـ بني ـ عن تلك الأسرار التي لا يطيقها عقلك، فأنت لم تنزل في هذه الدنيا، لتبحث عن أسرار ربك، وإنما نزلت إليها لتطهر نفسك، وتملأها بالأخلاق الرفيعة.. فإذا ما تطهرت، وارتقت، صارت قابلة لتنزل الحقائق من غير جهد منك، فمعرفة الله هبة إلهية، لا تحل إلا في القلوب الطاهرة الممتلئة بالصدق والإخلاص.

واحذر ــ بني ــ بعد هذا من أولئك الدجالين الذين يدعونك لترك العمل، ويملأونك بالأمان الكاذب، فالله تعالى نهانا أن نتعدى حدوده، أو نقصر في تنفيذ عهودنا معه، وتوعدنا بالعذاب إن فعلنا ذلك، وما كان لنا أن نتعدى ما ذكره ربنا، أو نتجاوزه، أو نهون منه.. لقد قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

[1] الكافي 1/104.

[2] الكافي1/105.

وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران: 77]

وأخبر أن الدجالين من هذه الأمة الذين يملأونك بالغرور الكـاذب، لا يختلفـون عن أولئـك الـدجالين من أهـل الأديـان الأخرى، والذين كذبوا على أقوامهم، {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّـنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًـا مَعْـدُودَةً } [البقـرة: 80]، فـرد اللـه تعـالى عليهم بقولـه: {أَتَّخَـذْتُمْ عِنْـدَ اللَّهِ عَهْـدًا فَلَنْ يُخْلِـفَ اللَّهُ عَهْـدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: 80]، ثم أخـبر عن قانون الجزاء والعقوبة الذي شرعه الله لخلقه جميعا، فقـال: { بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُـهُ فَأُولَئِكَ أَصْـحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: 81، 82]

ولـذلك إذا صـحبت شخصـا، فحولـك من الطاعـة إلى المعصية، أو من الذكر إلى الغفلة، أو من العمل إلى الكسل، فاعلم أنه دجال.. فالعارف بربه من أكثر النـاس خشـية للـه، وعبودية له، وقد قال تعالى في وصفهم: { اللَّهُ نَـزَّلَ أَحْسَـنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَـوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْـرِ اللَّهِ ذَلِـكَ هُـدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [الزمـر: 23]

فهؤلاء الذين ترتعش قلوبهم، وهم يقـرؤون كتـاب اللـه، هم الـذين يفهمـون مقاصـد كلام ربهم، لأنـه لا يفهمهـا ذلـك الـدجال المتـاجر بهـا، وإنمـا يفهمهـا من امتلأ بالإيمـان باللـه وتعظيمـه ومحبتـه وخشـيته، فلـذلك لا يتحـرك أي حركـة إلا وكان الله دليله عليها.

واحذر ـ بني ـ بعد هذا من أولئك الذين يتبعون ما تشـابه من الكتاب، ويتركون محكمه.. أولئـك الـذين تركـوا الحقـائق الجلية، وراحوا يجادلون في الألفـاظ والمعـاني، وملأوا دينهم بالفتنة والزيغ، أولئك الذين حجبوا عن كلام ربهم، لأنهم ملأوه بالجدل والخصومة، لقد قال تعـالى في وصـفهم: {هُـوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَـاتٌ مُحْكَمَـاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَـابِ وَأُخَـرُ

مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [آل عمران: 7]

وهكذا يا بني احذر من أولئك الدجالين الذين يملأون قلبك أحقادا على المسلمين أو غيرهم، فمعاذ الله أن يجتمع الحقد مع الإيمان في محل واحد.. فالإيمان طمأنينة وسلام ومحبة.. ومن دعاك إلى الحقد دعاك إلى الكفر والضلالة.

واحذر ــ بني ــ من أولئك {الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } [الروم: 32].. أولئك الطائفيين الذين تركوا الدعوة إلى الله ورسوله والقيم النبيلة، وراحوا يدعونك إلى أنفسهم، وشيوخهم..

وأول علاماتهم دعوتك للصراع مع المسلمين، وتكفيرهم، وقتلهم، وملأ القلوب حقدا عليهم.. فكل من دعاك إلى ذلك شيطان.

ولذلك كان من أول علامات الصديقين دعوتك إلى الوحدة بين المسلمين، والسلام بين العالمين.. فالله تعالى لم يخلقنا مختلفين ليصارع بعضنا بعضا، وإنما خلقنا كذلك ليعرف بعضنا بعضا، ويستفيد بعضنا من بعض.

وهكذا، احذر ـ بني ـ من أولئك الدجالين الذين يملأونك بالخرافة والدجل والشعوذة.. فدين الله دين علم، ومن اعتقد بأن العلم يخالف الدين فإنه جاهل بكليهما.. فالعلم يعرفك بخلق الله، وسننه في كونه.. والدين يعرفك بشريعة الله، وسننه في الحياة.. وكلاهما يخدم الآخر.. بل كلاهما دين.. وكلاهما علم.

وهكذا، احذر ــ بني ــ من أولئك الدجالين الذين يتسابقون إلى وسائل الإعلام، وينشرون صورهم في كل محل، فهؤلاء لا يدعونك إلى الله، وإنما يدعونك إلى أنفسهم، فأول علامات العالم فناؤه عن نفسه بالحق الذي يحمله..

ولذلك يمتلئ خجلا إن ذكـر في المجـالس.. لأنـه لم يـدع إلى ذكر اسمه، وإنما دعا إلى ذكر اسم الله.

هذه ـ بني ـ بعض صفات الـدجالين.. فاحفظهـا.. واحـذر من أن يتسللوا إليك، وإلى قلبك وعقلك.. فـدينك رأسـمالك، وبـه نجاتـك وسـعادتك، فلا تسـلمه إلا لمن تثـق في صـدقه وإخلاصه وتقواه.

فـإن فعلت ذلـك أمنت من شـر كـل الـدجالين .. ليس الـذين يعاصـرونك فقـط.. وإنمـا من جميعهم حـتى من ذلـك الـذي لا يـزال يختـبئ في عـوالم الغيب، ينتظـر من رسـله الصغار أن يمهدوا له العقول والقلوب، لينشـر فتنتـه الكـبرى في الأرض.

سألتني بني عن الأماني.. وقـد ذكـرت لـك أنهـا ثنتـان.. أولاهمـا مملـوءة بالكـذب والـدجل والخرافـة، لأنـه يغـذيها الشيطان، ويسقيها الهوى، ويربيها الكذب على النفس.

وأما الثانية، فمملوءة بالصدق والعقلانية والحقيقة، لأنــه يغذيها الله، ويسقيها العقل، ويربيها الصدق والوفاء.

أما أولاهما، فتلك التي ذكرهـا اللـه تعـالى، وحـذر منهـا، فقال: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُـوءًا يُجْـزَ بِـهِ وَلَا يَجِـدْ لَـهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِـيرًا} [النسـاء: 123]

وهي تخاطب كـل البشـر وتـدعوهم لعـدم الكـذب على أنفسهم، فلن ينفعهم عند اللـه إلا السـير وفـق السـنن الـتي رتبها، والنظم التي وضعها.. لا السنن التي عجنوها بأهوائهم، ورتبوها بعقولهم، ثم راحـوا يفرضـونها على اللـه، وكـأن اللـه تعالى في عزه عبد من عبيدهم أو خادم من خدمهم.

مع أنهم هم أنفسهم يترفعون أن يتأمر عليهم أحـد فيمـا يملكون، أو يتدخل في الشؤون التي يرونها خاصة بهم، والتي يعتقدون ملكيتهم لها، مع أنها ليست ملكيـة حقيقيـة، بـل هي مجرد إعارة سرعان ما تخرج من أيديهم.

وفوق ذلك، فإن العقول كلهـا تسـلم أنـه لا يملـك وضـع قـوانين الجـزاء والعقوبـة إلا صـاحب الملـك والحكم والأمـر، وهل هناك مزاحم لله في ملكه أو حكمه أو أمره، حتى يضــع معه القوانين، أو يقترح عليه ما يهوى، وما لا يهوى؟

والعقول كلهـا تسـلم أن من أحيـا أرضـا مواتـا فهي لـه، ومن اخــترع شــيئا نــال بــراءة اختراعــه، ولا يحــق لأحــد أن يشـاركه فيـه.. وهكـذا الأمـر مـع هـذه الأكـوان الـتي لم تكن لتوجـد لـولا اللـه.. فاللـه باريهـا.. ومـا كـانت لتحيـا.. فاللـه

محييها.. وما كانت لتنال أرزاقها.. فالله هو الـرزاق ذو القـوة المتين.

ولذلك كان العقل السليم داعية للبحث عن قـوانين هـذا الإله المبدع المحيي الرزاق.. لاتباعها بدقة، والثقـة فيهـا ثقـة مطلقة.. ذلك أنه يستحيل أن يبـدع كـل هـذا الإبـداع، ويفيض كل هذه الفيوضـات، ثم يقصـر بعـد ذلـك في وضـع القـوانين التي تناسبها.. وهو نفسه الـذي وضـع قـوانين الـذرة والخليـة والمجرة وكل شيء.

لـذلك كـان الهـرب من اللـه إلى النفس، كـالهرب من السـهول والتلال المملـوءة بأصـناف الأزهـار والثمـار.. إلى الفيافي القاحلة المملوءة بالحيات والعقارب.

والـذي يفعـل ذلـك.. ثم يرجـو النجـاة والفـوز.. يكـون صاحب أماني كاذبة.. فالأزهار لا تنبت في الفيافي الجــرداء.. وإنما تنبت في الأراضي الطيبة اللينة الهينـة.. الـتي يتعاهـدها أصحابها بالسقي كل حين.

لقد قال الشاعر عن ذلك الغرور الذي يصيب هؤلاء:

ترجو النجَاة وَلم تسلك مسالكها   إِن السَّفِينَة لَا تجْرِي على اليبس

وصدق في ذلك، فسنة الله تعالى في السفن ألا تجــري إلا في البحار والأنهار.. والعقول الـتي تريـدها أن تجريهـا في الجبال والتلال عقول واهمة، لا تعيش إلا في الخيال.

لذلك كان من مقتضى العقـل والحكمـة أن نتعامـل مـع الملكـوت بنفس تعاملنـا مـع الملـك.. ونتعامـل مـع قـوانين الآخرة بنفس تعاملنا مع قوانين الدنيا، حتى لا نقـع في حبـال الأوهام الكاذبة.

وحينها يمكننا أن نتمنى الأمـاني الصـادقة الـتي يصـدقها الحال والعمل.. فالفلاح الـذي يحـرث الأرض، ثم يزرعهـا، ثم يسقيها، ثم يتعاهدها بكل ما تحتاجه من صـنوف الرعايـة هـو

الوحيد الذي يحق له أن يتمنى رؤية الثمار، والاستفادة منها.

أمـا ذلـك الكـاذب الـذي ينظـر إلى الأرض، ويتمـنى أن تخرج له خيرهـا من غـير أن يبـذل أي جهـد، ولا أن يقـدم أي عمل، فهو كاذب على نفسه، وعلى ربـه.. فاللـه الـرزاق هـو نفسه الذي أمرنا ببذل الجهد، حتى ننال الثمار التي نرجوهــا، وفي كل المجالات.

وقد قال مبينا سبل الهداية، وأنها لا تنـال إلا بالمجاهـدة: {وَالَّذِينَ جَاهَـــدُوا فِينَـــا لَنَهْـــدِيَنَّهُمْ سُـــبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَـــعَ الْمُحْسِـــنِينَ} [العنكبــوت: 69]، فقـــد رتب الهدايـــة على المجاهــدة، ولا يمكن لأحـــد نـــائم وكســول أن ينـــال أجـــر المجاهدين.

ولذلك كان أول ما أمر به رسول الله ﷺ هو القيـام، لأن القاعد لا يمكن أن يفعل شيئا، قال تعـالى: {يَاأَيُّهَـا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا } [المزمل: 1، 2]، وقال: {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَـكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْـزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ } [المــدثر: 1 - 7]

ولذلك فإن الذي لا يقوم، بل يظـل متـدثرا، ومـتزملا لن ينال شيئا.. ولهذا بذل رسول الله ﷺ كل مـا أوتي من طاقـة، وتحرك في كـل المجـالات إلى أن أدى الرسـالة الـتي وكلت إليه أحسن أداء.

ومـع ذلـك كلـه كـان يكـثر من الاسـتغفار، لاستشـعاره التقصير في حق الله، وكان يردد كل حين: ، وهـذا من كمـال عبوديته، وعظم مقام الألوهيـة عنـده، وفي هـذا كـان يقـول: (إنـه ليغـان على قلـبي، وإني لاسـتغفر اللـه في اليـوم مائـة مرة)[1] ، وكان يقول: (يا أيهـا النـاس توبـوا إلى ربكم، فـإني

[1] ()صحيح مسلم 4/2075 ح(2702)

أتوب إلى الله عز وجل في اليوم مائة مرة)[1]

بل إن الله تعالى أمره أن يقول بعد ذلك كله: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ } [الأحقاف: 9]، فالآية الكريمة تنص على أن رسول الله ﷺ كان يكل علم مصيره إلى الله تعالى.

بل ورد في الحديث الشريف ما يدل على هذا، فعن أم العلاء أنها قالت بعد وفاة عثمان بن مظعون ـ وهو من الصحابة الأوائل الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ في كل المحن التي مر بها ـ: (رحمة اللّه عليك أبا السائب شهادتي عليك، لقد أكرمك اللّه تعالى)، فقال لها رسول اللّه ﷺ مصححا وموجها: (وما يدريك أن الله أكرمه؟)، فقالت: (لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله)، فقال رسول الله ﷺ: (أما عثمان فقد جاءه والله اليقين، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به) ، قالت: فوالله لا أزكي أحدا بعده أبدا، وأحزنني ذلك، قالت: فنمت، فأريت لعثمان عينا تجري، فجئت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته، فقال: (ذاك عمله)[2]

ثم يأتي بعد ذلك أصحاب الأماني الكاذبة ليوهموا الناس أن الأمر يسير، وأنه ليس عليهم شيء.. بل بمجرد أن يخرجوا من هذه الدنيا يدخلون الجنان، من غير أن يبذلوا أي جهد في غرس أشجارها، أو بناء قصورها، أو تنقية أرضها.

مع أن الجنة ليست سوى ثمرة للأعمال.. فمن لم يعمل في دنياه لم يجد في آخرته.. وقد ذكر الله تعالى ذلك، وبين قوانينه، فقال: {يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6)

[1] () رواه مسلم (2702) (42) ، والنسائي في عمل اليوم والليلة (446) و (447) وغيرهما.

[2] () صحيح البخاري 3/181 ح(2687)

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَـرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَـلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)} [الزلزلة: 6 - 8]

هذه نصيحتي إليك، ولأن تلقى قوما يخوفونك حتى تجـد الأمان، خير من أن تلقى قوا يؤمنونك حتى تجد المخافة..

فاعمل صالحا ـ يا بني ـ في دنيـاك، واسـتغفر اللـه من التقصير، وخذ العبرة بذلك الطاهر الذي قدم كل شـيء للـه، لكنه عندما سـأل اللـه في عرفـات قـال والـدموع تنهمـر من عينيه: (يا أسمع السامعين، ويـا أبصـر النـاظرين، ويـا أسـرع الحاسبين، ويا أرحم الراحمين، صل على محمد و آل محمـد، وأسألك اللهم [إلهي] حاجتي الـتي إن أعطيتنيهـا لم يضـرني ما منعتني، وإن منعتنيها لم ينفعني ما أعطيتني، أسألك فكاك رقبتي من النار)[1]

ولا تكن كأولئك المغرورين الـذين وزعـوا على أنفسـهم وأصـحابهم قصـور الجنـة وجنانهـا وأنهارهـا، ووزعـوا على أعدائهم دركات جهنم وحرهـا وزمهريرهـا، من غـير سـلطان، سوى تلك الادعاءات الكاذبة والأماني الزائفة.

وقـد أخـبر اللـه تعـالى عن انكشـاف الحقيقـة لهم في الآخرة، فقـال: {وَقَـالُوا مَـا لَنَـا لَا نَـرَى رِجَـالًا كُنَّا نَعُـدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (62) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَـارُ (63) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (64)} [ص: 62 - 64]

هذه وصيتي ـ بني ـ إليك، فاحفظها.. فهي ليست سـوى شرح لكلمـات ربـك المقدسـة، والـتي وضـع رسـول اللـه ﷺ قانونا جامعا لها، فقال: (الكيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد المـوت، والأحمـق من أتبـع نفسـه وهواهـا وتمـنى على اللـه الأماني)[2]

---

[1] () من دعاء الإمام الحسين في عرفة، إقبال الأعمال ص : 52.

[2] () سنن الترمذي 4/219 ح(2459)

رأيتك ـ بني ـ وأنت تمسك كتابا ذكـرت لي أنـه من كتب العرفان.. وقد ملأني ذلـك سـرورا، كمـا ملأني مخافـة.. وأنـا أحب أن أذكر لك في هذه الوصية ما سـرني من فعلـك، ومـا خشيت عليك منه..

أما ما سرني، فهو اهتمامك بمعرفة الله تعـالى، وبحثـك عنها، فليس في الوجود مـا هـو أغلى وأعـز منهـا، وليس في الوجود كذلك زهد أعظم من الزهد فيها..

ولذلك كان الاهتمام بهـا علامـة اكتمـال العقـل، وتـرقي الروح.. وقد روي أن موسى عليه السـلام قـال: (يـا رب! أي العباد أكـثر حسـنة، وأرفـع عنـدك درجـة ؟)، فقـال اللـه لـه: (أعلمهم بي)

و روي أن اللّه تعالى أوحى إلى داود عليـه السـلام: (يـا داود! تعلم العلم النافع)، فقـال: يـا إلهي! ومـا العلم النـافع؟ قال: (أن تعرف جلالي، وعظمتي، وكبريائي، وكمـال قـدرتي على كـل شـيء، فـإن هـذا الـذي يقربـك إليّ، وإني لا أعـذر بالجهالة من لقيني)

ولذلك أمرنا الله تعـالى بـأن نبحث عنـه، ونتعـرف عليـه في كل شيء، حتى لا نجهله في شيء، فقال: { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ } [محمد: 19]، وقال: {شَـهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ وَالْمَلَائِكَـةُ وَأُولُـو الْعِلْمِ قَائِمًـا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: 18]

أما ما خشيت عليك منه؛ فهو أن تتوهم أنك بقراءة كتب العرفان تصل إلى معرفة الله، وهيهـات.. فـالكتب قـد تـدلك على الطريق، أو قد تقطع عنك بعض العقبات، أو قـد تفيـدك ببعض التجارب، أو قد تحل لـك بعض الإشـكالات، ولكنهـا لن توصلك وحدها إلى الطريق..

فطريق معرفة الله يحتاج منك إلى مجاهدات كثيرة، فقد ربط الله بين الهداية إليه وبين المجاهدة، فقال: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } [العنكبوت: 69]

والمجاهدة تستدعي منك مراعاة قلبك، حتى لا يمتلئ بالأغيار، فالله غيور لا يرضى بالشريك.. وتستدعي الصفاء، فالله كريم، ولا يحل الكريم في البيت المملوء بالدنس.. وتستدعي الهمة العالية، فهي السلم الوحيد الذي ترتقي به إلى الله، وقد وصف الله بها الصادقين من عباده، فقال: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ } [الأنعام: 52]

وتستدعي بعد ذلك كله وقبله الذكر الكثير.. فالغافل لن يصل إلى شيء.. ولهذا وصف الله عباده الصالحين بكثرة ذكرهم لله، فقال: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ} [الأحزاب: 35]

وتستدعي الترفع عن الأكوان، لأن حضرة الله حضرة مقدسة، ولا يصح أن ندخل إليها بنعال الأكوان.. وقد سئل بعض الحكماء: كم بين الحق و العبد؟، فقال: (أربعة أقدام: يرفع قدما من الدنيا، وقدما من الخلق، وقدما من النفس، وقدما من الآخرة؛ فإذا هو عند اللّه)

ولهذا قد لا تحتاج يا بني للكثير مما تذكره تلك الكتب، ذلك أن العمدة على الإرادة والهمة العالية والصفاء، وقد سأل بعض المريدين شيخه أن يعطيه الاسم الأعظم الذي يختصر به الطريق إلى معرفة الله، فقال له: (ليس لاسم اللّه حد محدود، ولكنه فراغ قلبك لوحدانيته، وترك الالتفات إلى غيره؛ فإذا كنت كذلك، فخذ أي اسم شئت، تسير به من المشرق إلى المغرب، في ساعة ثم تجيء)

وإياك يا بني من أن تقع فيما يقع فيما نص عليه قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى

أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الحج: 52]

ذلك أن الشيطان لن يترك الحق مجردا عن الباطل، بل هو يسعى لخلطه به، حتى يكون ذلك فتنة.. ولذلك فإنه كما أن في تلك الكتب عسل كثير، فإن فيها أيضا من السموم ما قد يقتلك.. فاجتهد في أن تستفيد من عسلها، وإياك وسمها.

ولن تتحصن من سمها حتى تتحصن بكتاب ربك، وهدي نبيك وورثته الذين أوصى بهم، فهم الحكم الذي يرد إليه كل شيء، وقد قال بعض المشايخ: (إن النكتة لتقع في قلبي من جهة الكشف فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة)

وقال آخر: (كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة.. طِرْ إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة، ادخل عليه ويدك في يد الرسول ﷺ)[1]

وقال آخر: (إذا عارض كشفُك الصحيح الكتابَ والسنة فاعمل بالكتاب والسنة ودع الكشف، وقل لنفسك: إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها لي في جانب الكشف والإلهام)[2]

ولهذا اشتد الصالحون على أصحاب الطامات والدعاوى الذين لا يعطون للربوبية حقها من التعظيم، فاحذر هؤلاء، فهم مستدرجون، وليسوا عارفين، فأول علامات العارف أن يتحقق بما وصف الله تعالى به عباده حين قال: { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا

[1] الفتح الرباني والفيض الرحماني، ص29.

[2] انظر: إيقاظ الهمم، (2/302)

(67) } [الفرقان: 63 - 67]

وقال في وصف المخبتين: {وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذَا ذُكِـرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُـوبُهُمْ وَالصَّـابِرِينَ عَلَى مَـا أَصَـابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـاهُمْ يُنْفِقُـونَ (35)} [الحج: 34، 35]

وقـال في وصـف المفلحين: {قَـدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُـونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَـلَاتِهِمْ خَاشِـعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْـوِ مُعْرِضُـونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَـاةِ فَـاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَـإِنَّهُمْ غَيْـرُ مَلُـومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِـكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَـلَوَاتِهِمْ يُحَـافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُـونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَـا خَالِـدُونَ (11)} [المؤمنـون: 1 - 11]

فاجعل هذه الآيات نصـب عينيـك.. فمعرفـة اللـه أعظم من أن تحل في القلـوب المدنسـة بـالأهواء والكـبر والتعـالي والغــرور، وقــد قــال رســول اللــه ﷺ: (إني لأعلمهم باللــه وأشدهم له خشية) [1]

---

[1] ()رواه البخاري (6101)، ومسلم (2356)

رأيتك ـ يا بني ـ حزينا على موت ذلك الصديق الذي كان يملأ حياتك بالسعادة.. وأنا لا أريد أن أمسح ذلك الحزن الجميل الذي كسا وجهك، فملأه بالبراءة والصدق والوفاء، ولكني أريد أن أذكر لك الحقائق التي ترتبط بالموت.. والتي نتألم ونحزن عندما لا نستعملها أحوج ما نكون إليها.

فليس الموت يا بني ذلك الشبح الذي صورته لنا الأوهام، أو تلك العقول التي لم تتطهر في مطهرة الوحي المقدس.. وإنما هو شيء آخر أجمل بكثير.

إنه موعد لقاء الله.. وهل هناك قلب أو عقل أو روح لا تشتاق لأجمل لقاء لها في حياتها جميعا.. فبالموت تزاح كل تلك العلائق والعوائق والحجب التي كانت تفصل الروح عن بارئها، وتملؤها بالكدورات والمنغصات.

ولهذا تحدى الله تعالى أولئك الذين زعموا كاذبين أنهم أولياء الله ومحبوه، حيث قال لهم وعنهم: { قُلْ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [الجمعة: 6، 7]

وهكذا تحداهم عندما ادعوا أن لهم الدار الآخرة خالصة من دون الناس، فقال: {قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة: 94]

ثم ذكر كذبهم في ادعائهم، فقال: {وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [البقرة: 95]

ثم ذكر السبب في ذلك، وهو الحرص على الحياة الدنيا، فقال: { وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ

الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [البقرة: 96]

والآيات الكريمة تشير إلى نوعين من الحياة.. الحياة الدنيا التي نعيشها بهذه الأجساد الممتلئة بالآفات والمنغصات والكدورات.. والحياة التي يحياها الموتى الصادقون، والممتلئة بالسعادة والقوة والفرح.

ولو أنك يا بني رأيت ذلك الصديق الذي حزنت على وفاته، بعد أن خلع عنه جلباب جسده، لفرحت له فرحا عظيما.. ولعلمت أن الله تعالى ما اختار له الموت إلا ليريحه، ويبدله جسدا خيرا من جسده، وحياة خيرا من حياته.. والله لا يريد لنا إلا الخير.

إن مثل ذلك يا بني مثل رجل يملك مطية متهالكة فانية لا تكاد تقطع به الطريق.. ثم أُبدل بأخرى أقوى وأسرع.. فهل يحزن على مطيته القديمة، أم يغمره السرور لمطيته الجديد؟

وهكذا أجسادنا ـ يا بني ـ فإنها ليست سوى مطايا لأرواحنا تستعملها في هذه الحياة الدنيا.. لتؤدي خدمتها الإلزامية، وتكليفها الشرعي، وبعدها تمتطي من المطايا ما يفوق تلك المطية المتهالكة بكثير.

إن أجسادنا يا بني لا تختلف عن أظافرنا وشعرنا الذي نلقيه عندما نتضايق من طوله.. وهكذا عندما نتضايق من علل جسدنا يرميه الله عنا، ويبدلنا جسدا أقوى وأصح وأجمل وأكمل من أجسادنا.

ولا تحزن يا بني على الأرزاق التي كان صديقك يتناولها .. فهي موجودة هناك أيضا .. فيستحيل على الرزاق الذي رزق عالم الحياة الدنيا ألا يرزق عالم الحياة الأخرى.

والأرزاق هناك أجمل وأفضل وأكمل.. وأين هي أرزاق هذه الحياة من أرزاق تلك الحياة.. لقد وصفها الله تعالى فقال: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ

أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 169 - 171]

إن هذه الآيات الكريمة تصور بعض حسنات تلك الحياة، وتشير إلى مجامع نعمها.. ويمكنك بالتدبر فيها أن ترى عوالم كثيرة تختزنها كلماتها المقدسة.

إن أهل تلك الحياة بحسب تلك الآيات الكريمة يحيون حياة حقيقية لا حياة الأشباح والخيالات التي تصورها الأوهام..

ويرزقون رزقا حقيقيا يلتذون له .. لا رزقا وهميا أو معنويا.. بل هو رزق شامل لكل متطلبات تلك الأجساد الجديدة التي أنعم الله بها عليهم، والتي أتيح لهم بها من الطاقات ما لم يتح لأجسادهم الدونية والدنيوية.

والآيات تذكر أيضا حياتهم الاجتماعية.. فهم مجتمعات مثل هذه المجتمعات.. بل هي أفضل من هذه المجتمعات، لأنها مجتمعات للمتجانسين والمتشاكلين من أصحاب الهمم الواحدة.

والآيات تذكر اتصالهم بهذه الحياة الدنيا، وأنهم وإن خرجوا منها بأجسادهم إلا أن لهم تواصلا تاما معها، يسمعون أخبارها، بل يشاهدونها مثلما نشاهد على شاشات التلفاز أخبار العالم..

بل إنهم لا يشاهدونها فقط، وإنما يتفاعلون معها، ويمكنهم أن يقدموا خدماتهم لها في حال الحاجة إلى ذلك.

لذلك يا بني على تحزن على صديقك.. فقد كنت أراه كثير الذكر لربه، كثير العمل الصالح، وكنت أستمع لحديثكما فأمتلئ سعادة وسرورا.. وأعلم أن الله الكريم لن يخيبه.. فكل أعماله الصالحة التي عملها سيجني ثمارها هناك،

وسيراها رأي العين.. فالله لا يضيع عنده شيء.

ومع هذا يا بني لا أدعوك لتمني الموت، فقد نهينا عن ذلك، والأدب مع الله يجعلنا نترك الأمر له، فهو الذي حدد الآجال، وهو الأعلم بمصالحنا.

ومثل من يتمنى الموت قبل أن يكمل ما عليه مثل من يطلب الخروج من الامتحان قبل أن يكمل الإجابة على الأسئلة التي طرحت عليه.. ولذلك قال ﷺ: (لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، ولا يدع به قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا)[1] ، وقال: (لا تمنوا الموت، فإنه يقطع العمل، ولا يرد الرجل فيستعتب)[2]

ووضح سبب ذلك في حديث آخر، أكثر تفصيلا، فقال: (ما من أحد يموت إلا ندم)، قيل: وما ندامته يا رسول الله؟ قال: (إن كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئا ندم أن لا يكون نزع)[3]

وروي أنه ﷺ مر النبي بقبر دفن صاحبه حديثا، فقال: (لركعتان خفيفتان مما تحقرون أو تنفلون يراهما هذا في عمله أحب إليه من بقية دنياكم)[4]

وروي أن بعضهم خرج في جنازة، فانتهى إلى قبر، فصلى ركعتين، ثم اتكأ عليه، فسمع صوتا يقول له: (إليك، ولا تؤذني، فإنكم قوم تعملون ولا تعلمون، وإنا قوم نعلم ولا

[1] () رواه مسلم ح 2682.

[2] () رواه أحمد 3/49.

[3] () رواه الترمذي ح 2403.

[4] ()الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد 1/10 ح(31).

نعمل، لأن يكون لي مثل ركعتيك أحب إلي من الدنيا وما فيها)، ثم قال: (جزى الله أهل الدنيا خيرا، أقرئهم منا السلام، فإنه يدخل علينا من دعائهم نور مثل الجبال)

أعلم يا بني أنك ستعترض علي، وتذكر لي أن هذا مخالف لما ذكره الله تعالى من دعوة اليهود إلى تمني الموت.. والأمر ليس كما فهمت.

فاليهود اُختبروا لحبهم للدنيا، وحرصهم عليها، ولم يختبروا لإيمانهم وتقواهم.. ذلك أنه ليس كل من لا يتمنى الموت راغبا عن لقاء الله.. بل قد يكون من أكثر الناس رغبة في ذلك اللقاء المقدس..

ولكنه يتمنى تأجيله، لا لطلب شهوات الدنيا، وإنما لتطهير نفسه، والرقي بروحه حتى تصبح أهلا للقاء الحبيب..

وإن شئت مثالا يقرب لك ذلك، فاسمع لما قاله هذا الحكيم، فقد ضرب مثلا له بـ (المحب الذي وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه، فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيء له داره، ويعد له أسبابه، فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل، خفيف الظهر عن العوائق)[1]

وعلامة صدق هذا، هو حرصه على الطاعات، وإكثاره منها، حتى لا يعاجله الموت، وهو ممتلئ بالكدورات، وقد رئي بعض الموتى في المنام فقال: (ما عندكم أكثر من الغفلة، وما عندنا أكثر من الحسرة)

لذلك اجتهد يا بني في أن تعمل من العمل الصالح ما يؤهلك للقاء صديقك، وإياك أن تفتنك الدنيا، فلا تراه بعدها أبدا.. فقد سمعته وهو يوصيك في آخر أنفاسه بطاعة الله، لأنكما لم تجتمعا إلا على ذلك، ولم تفترقا إلا عليه.

فإن كنت حقيقة حزينا عليه ومحبا للقائه، فسر في

---

[1] ()إحياء علوم الدين (4/ 330)

حياتك مثلما كنت تسير معه، وحافظ على عهدك معه، ولا تنسى أن ترسل له من الهدايا ما تحفظ به وفاءك وصدقك.

واعلم أن الله الشكور الكريم كما يوصل له هديتك، يحفظ لك أجرها أيضا، بل يضيف لها أجر وفائك وصدقك وأخوتك.. فالإخوان في الله على (منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء)[1]

[1] () سنن الترمذي، 4/175 ح(2390)

رأيتك ـ يا بني ـ تنظر إلى الشـيب الـذي اشـتعل بـرأس أبيك كاشتعال النار في الهشيم بألم وحزن.. فلا تفعل ذلـك.. والأمر لا يحتاج منـك إلى ذلـك؛ فلا ينبغي أن نقابـل نعم اللـه بالألم، ولا بالحزن، بل ينبغي أن نقابلها بالابتسامة المصـحوبة بالحمد والشكر والاعتراف.

ولهــذا بــدل أن تنظــر إلى مــا بقي لأبيــك من عمــر، فتستقله وتحتقره، أن تنظر إلى ما مضى له منه، وتحمد الله على أن الله أضاف له الكثير من الأيام والسنين الـتي تمكنـه من تدارك التقصير، وإصلاح ما أفسده، أو فرط فيه.

فالشيب ـ يا بني ـ ليس مجرما اقتحم رأسي، وإنمـا هـو رسول كريم من رب العالمين يبشـرني بقـرب لقائـه، ولقـاء رسوله، ولقاء الأولياء والصالحين، وهل هنـاك من يـرغب عن لقاء من يحبه؟

وهو أيضا نذير لي لأحضر نفسي لذلك اللقاء المقـدس.. بتطهيرها، وتصحيح أخطائها، وتقويم سلوكها، حتى ألقى الله، وهو راض عني.

وهو فوق ذلك كله مجرد تغير طفيـف في لـون الشـعر، ولا علاقة له بالعقل، ولا بـالقلب، ولا بـالروح.. فـروح أبيـك لا تزال في ريعان شبابها.. لم يحطم الشـيب همتهـا، ولم يقعـد بها، ولم يجتث أشجار الآمال التي لا تزال متعلقة بها..

وكيف يفعل ذلك، وهو يعلم أن الروح الصادقة المرتبطة ببارئهــا لا تزيــدها الأيــام إلا قــوة وصــلابة وهمــة.. والقلب المملتئ بالإيمان لا تزيده الأيام إلا صفاء وطهرا ورقيا.

فلذلك لا تحـزن على مـا ألم بعـالم الأجسـاد، فهـو ليس سوى تراب، وسيعود للتراب طال الزمن أو قصـر.. وبعـدها.. لن يبقى هناك شـيء اسـمه الشـيب، ولا المـرض، ولا الألم..

بل سيعود لأبيك بفضل الله وكرمه شبابه الدائم ظاهرا وباطنا..

فكن واثقا في فضل الله، راجيا رحمة الله، ناظرا إلى نعمه، ولا تنظر إلى الأشياء بميزان هواك، بل انظر إليها بميزان الحق، وسترى كيف يتحول الكدر إلى صفاء، والحزن إلى سعادة، والألم إلى راحة.

واسمع لهذا الشيخ من مشايخ الحكمة، والذي وقف يخاطب من اشتعل الشيب برؤوسهم، فملأهم ألما قائلا لهم [1] : (أيها الشيوخ، ويا أيتها العجائز.. ما دام لنا خالقٌ رحيم، فلا غربة لنا.. وما دام الله سبحانه موجوداً فكل شيء موجود.. فلا تحزنوا، ولا تتألموا)

ثم قال لهم: (نعم إننا راحلون ولا مناص من ذلك.. ولن يُسمح لنا بالمكوث هنا.. ولكن عالم البرزخ، ليس هو كما يتراءى لنا بظلمات الأوهام الناشئة من الغفلة، وبما قد يصوّره أهل الضلالة، فليس هو بعالم الفراق، ولا بعالم مظلم، بل هو مجمع الأحباب، وعالم اللقاء مع الأحبة والأخلّاء، وفي طليعتهم حبيبُ رب العامين وشفيعنا عنده يوم القيامة ﷺ.. أجل يا إخواني الشيوخ، فما دامت الآخرةُ موجودةً، وما دامت هي باقية خالدة، وما دامت هي أجمل من الدنيا، وما دام الذي خلقنا حكيماً ورحيماً؛ فما علينا إذن إلّا عدم الشكوى من الشيخوخة، وعدم التضجر منها؛ ذلك لأن الشيخوخة المشرّبة بالإيمان والعبادة، والموصلة إلى سنّ الكمال، ما هي إلّا علامة انتهاء واجبات الحياة ووظائفها، وإشارة ارتحال إلى عالم الرحمة للخلود إلى الراحة. فلابدّ إذن من الرضا بها أشدّ الرضا)[2]

---

[1] () هذه نصوص مفرقة من (رسالة الشيوخ)، لبديع الزمان النورسي، وهي من كتاب [اللمعات]، ص313، فما بعدها، وبتصرف كبير، لتتناسب مع المقال.

وقـــال لهم: (إن الإيمـــان قـــد أظهـــر بعلم اليقين أن المستقبل الذي يتراءى لنا بنظر الغفلة، كقبر واسـع كبـير مـا هـو إلّا مجلس ضـيافة رحمانيـة أُعـدّت في قصـور السـعادة الخالـدة.. و إنَّ الإيمـان قـد حطّم صـورة التـابوت والنعش للزمن الحاضـر الـتي تبـدو هكـذا بنظـر الغفلـة، وأشـهدنا أن اليـوم الحاضـر إنمـا هـو متجـر أخـروي، ودار ضـيافة رائعـة للرحمن.. وإنَّ الإيمان قد بصّرنا بعلم اليقين أن ما يبدو بنظر الغفلة من الثمرة الوحيدة التي هي فوق شـجرة العمـر على شـكل نعش وجنـازة. أنهـا ليسـت كـذلك، وإنمـا هي انطلاق لأرواحنا من وكرها القـديم إلى حيث آفـاق النجـوم للسـياحة والارتياد.. وإن الإيمان قد بيّن بأسراره أن عظامنـا ورميمهـا، ليسا عظامـاً حقـيرة فانيـة تـداس تحت الأقـدام، وإنمـا ذلـك التراب باب للرحمة، وستار لسرادق الجنة..)[3]

هكذا ينبغي أن تنظر يا بني إلى هـذا الشـيب، وإلى كـل شيء.. فالله تعالى لا يرسل لنا في كتب مقاديره إلا الرحمـة والسلام.. ونحن نحزن ونتألم لأننا لا نقـرأ تلـك الكتب قـراءة صـحيحة، وإنمـا نقرؤهـا بحسـب نظرتنـا القاصـرة المحـدودة الممتلئة بالضعف والعجز.

ولذلك راح الجهلة يحجبـون بالشـيب والمـرض والمـوت عن رحمة الله، بل عن وجـود اللـه نفسـه، لأنهم يريـدون من الـدنيا أن تكـون سـاحة لأهـوائهم، وليس مـدرجا ومدرسـة للابتلاء والاختبار.

فدع عنك يا بني ذلك الحزن والألم.. فهو لا يليق بك، ولا يليق بعبوديتك.. فالمؤمن هو الذي يفرح لكل شيء يفـد إليـه من اللـه، لأنـه يعلم أن الـرحمن الـرحيم الجـواد الكـريم لا يرسل إلا ما هو من مقتضيات صفاته وأسمائه.

---

[2] () اللمعات، ص319.

[3] () المرجع السابق، ص324.

المرض

سألتني ـ بني ــ عن المـرض وأسـراره والحكمـة منـه.. وذكرت لي أثناء ذلك ما يتفوه بـه المعترضـون على اللـه من كونه شرا وألما لا مبرر له، ولا حاجة إليـه، وأن الـذي قـدره ـ إن كان موجودا ـ ليس لـه علاقـة بالرحمـة، ولا بـاللطف، ولا بأي معنى من المعاني النبيلة.

وأنا لا أريد أن أقنع هؤلاء بما يختزنـه المـرض والألم من الرحمة واللطف.. فأنـا أعلم أن الـذي يتجـرأ على ربـه بمثـل تلك الوقاحة والبذاءة يستحيل عليه أن يفهم وصيتي، أو يقتنع بها، أو يعتقد بما فيها.

ذلك أنه لا ينطلق من عبوديته لله، وافتقاره إليـه، وإنمـا ينطلق من شعوره بالنديـة لـه، بـل من تعاليـه عليـه، ولـذلك يطلب منه حتى يثبت وجـوده أن يتخلى عن حكمتـه وقوانينـه وسننه، ويلتفت لما يمليه عليه.

وهؤلاء هم الذين واجهوا الرسل عليهم الصلاة والسـلام، وطلبـوا منهم الآيـات الكثـيرة، وعنـدما رأوهـا بـأم العين، لم يخضعوا لها، وإنما راحوا يلتمسون أعذارا جديدة ليتهربـوا من التكاليف التي يمليها عليهم الإيمان..

لقـد ذكـر اللـه تعـالى ذلـك، فقـال: {اقْتَـرَبَتِ السَّـاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2) وَكَـذَّبُوا وَاتَّبَعُـوا أَهْـوَاءَهُمْ وَكُـلُّ أَمْـرٍ مُسْـتَقِرٌّ (3) وَلَقَـدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيـهِ مُزْدَجَـرٌ (4) حِكْمَـةٌ بَالِغَـةٌ فَمَـا تُغْنِ النُّذُرُ } [القمر: 1 - 5]

ولـذلك سـيكون خطـابي لـك.. ولأولئـك الصـادقين من المؤمنين الذين خضعوا لما أوصلتهم إليه عقولهم التي أحالت أن يكون هـذا الكـون بتصـميمه البـديع خاليـا من مـدبر حكيم ممتلئ بكل أصناف العظمة.

وأول ما دلتهم عقولهم عليه بعد ذلك، البحث عن الرسول الذي يرسله ذلك الإله الحكيم ليرشد خلقه إلى حقائق الحياة.. فيستحيل على الصانع الحكيم ألا يضع دليلا لعباده يهديهم إلى أسرار صنعته، وأغراضه منها.

وقد أوصلتهم هذه المعاني العقلية الضرورية إلى البحث عن أسرار الحياة، وسننها، والتي لا تستطيع عقولهم المجردة أن تعرفها..

وأول تلك الأسرار وأهمها سر الابتلاء.. فقد عرفوا أن هذه الحياة ليست هي الغاية ولا المقصد، وإنما هي حياة دنيا.. وهناك حياة أعلى وأكمل وأجمل منها بكثير، وقد وصف الله تعالى كليهما، فقال: {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [العنكبوت: 64]

ولذلك عرفوا أن الثغرات الموجودة في هذه الحياة كالمرض والفقر والحاجة وكل أصناف البلاء ليست مقصودة بذاتها، وإنما المقصود منها التمحيص والتمييز والتربية.. مثلما يفعل المدربون في مخيمات التدريب مع العساكر الذين يريدون تأهيلهم للحياة العسكرية، فلا يمكن أن تستقيم تلك التدريبات مع الرخاء والرفاه.

ولذلك لم ينظر الصادقون إلى البلاء إلا كما ينظر الجنود إلى فترة التدريب، باعتبارها مرحلة ضرورية لتأهيلهم وتوفير اللياقة لهم لممارسة وظيفتهم.. ولذلك لم تكن شرا، وإنما هي وسيلة إلى الخير.. وأداة للحياة الأبدية التي لا يمكن أن يتخيل أحد مدى جمالها وكمالها.

لقد سمعوا قوله تعالى في كلماته المقدسة: : (إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالغنى، ولو أفقرته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالقلة، ولو أغنيته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالسقم، ولو أصححته لكفر، وإن من عبادي من لا يصح إيمانه إلا بالصحة، ولو أسقمته

لكفر)[1]

فلـذلك سـلموا الأمـر للـه، ولم يعترضـوا عليـه.. وكيـف يعترضون، وهم يرون بأم أعينهم كيف يبطـر الأغنيـاء، وكيـف يستبد الأصحاء، وكيف يتحـول المسـتكبر العـاتي إلى إنسـان بسيط متواضع بسبب مرض ألم به، أو فقر وحاجة اعترته؟

هم يعلمون أن الحياة الدنيا حياة قصـيرة، ولا قيمـة لهـا في سجل الزمن اللا نهائي.. ولـذلك لم يبـالوا بكـل مـا يـنزل فيها من البلاء.. وكيف يبالون، وقد قـال اللـه تعـالى مخاطبـا رسوله ﷺ: { وَلَلْآخِـرَةُ خَيْـرٌ لَـكَ مِنَ الْأُولَى } [الضـحى: 4]، وقال: {وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [الْأعْلى: 17]؟

وكيف يبالون، وقـد أخـبرهم اللـه تعـالى أنـه سـيبتليهم، ولفترة محدودة، لا لعقابهم، وإنما لتمحيصهم وتـربيتهم، فقـد قال تعـالى: ﴿ وَلَنَبلُـوَنكُم بِشَـيء منَ الخَـوف وَالجُـوعِ وَنَقصٍ منَ الأمَـوَالِ وَالأنفُسِ وَالثمَـراتِ وَبَشـرِ الصـابِرِينَ الـذِينَ إِذَا أَصَـابَتهُم مصِيبَةٌ قَالُوا إِنا لِلهِ وَإِنـا إِلَيهِ راجِعونَ أُولَــئِكَ عَلَيهِم صَلَواتٌ من ربهِم وَرَحمَـةٌ وَأُولَــئِكَ هُمُ المُهتَـدُونَ ﴾ (البقـرة: 155-157)؟

ولذلك لم يلتفتوا للألم، وإنما التفتوا للبشـارة المرتبطـة بالألم، فحولوه من ألم إلى أمل..

وكيف لا يأملون، والذي وعدهم بذلك هو الله، خالق كل شـيء.. وقـد وعـدهم بالرحمـة الشـاملة الـتي لا تمتـد إلى أجسـادهم فقـط، وإنمـا لأرواحهم أيضـا.. ولا تمتـد لحيـاتهم القصيرة فقط، وإنما للحياة الأبدية..

ولـذلك غـابوا عن آلامهم بآمـالهم، ولم يعـد ذلـك الـداء الذي ينهش أجسادهم بقادر على الوصول إلى أرواحهم.. بـل بقي محصورا في محله الضيق من أجسادهم، والتي يعلمـون

[1] () رواه ابن ابي الدنيا في الاولياء (9/ 1 ح:1) و الكلاباذي في المعاني (377/ 1) و ابو نعيم في الحلية (318/ 8 - 319).

أنها ستعود لا محالة إلى التراب الذي جاءت منه، لأن العبرة ليست به، وإنما بالروح التي تمتطيه..

لذلك نظروا إلى الجانب المملوء من كأس البلاء، ولم ينظروا إلى الجانب الفارغ منها، وقد قال تعالى يبين كثرة الخير المخزن في طيات ما نكره:﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ (النساء:19)

ولذلك نرى تلك التعازي الكثيرة من رسول الله ﷺ للمرضى والمبتلين تدعوهم إلى الأمل في فضل الله الواسع.. وألا تشغلهم آلامهم عن الخير الكثير الذي ينتظرهم في هذه الدار، وتلك الدار.

لقد قال رسول الله ﷺ مخبرا عن الإكرامات العظيمة التي أكرم الله بها الصابرين على بلائه، والراضين بقضائه: (ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها)(1)

وعندما نزل قوله تعالى:﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾ (النساء:123) تأثر الكثير من الناس، خوفا على أنفسهم من صرامة المحكمة الإلهية، فقال لهم رسول الله ﷺ مخففا: (قاربوا وسددوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها، أو الشوكة يشاكها)(2)

ولهذا كان المرض ـ إذا ما صوحب بالصبر والرضا وعدم الاعتراض على الله ــ من أكبر وسائل التطهير.. تطهير النفس من الأمراض، وتطهير الصحيفة من السيئات.. ففي الحديث قال ﷺ: (إنما مثل المريض إذا برأ وصح كالبردة تقع من السماء في صفائها ولونها)(3)

---

(1) صحيح البخاري 7/114 ح(5640).

(2) صحيح مسلم 4/1993 ح(2574)

وعندما دخل عبد الله بن مسعود على النبي ﷺ في مرضه وجده وهو يوعك وعكا شديدا، فقال: إنك لتوعك وعكا شديدا، إن ذاك بأن لك أجرين، فقال ﷺ: (أجل ما من مسلم يصيبه أذى إلا حات الله عنه خطاياه كما تحات ورق الشجر) (1)

ويروى أن رسول الله ﷺ عاد امرأة مريضة يقال لها أم السائب، فقال ـ يسألها عن صحتها ـ : (ما لك يا أم السائب تزفزفين؟)، فقالت: (الحمى، لا بارك الله فيها)، فقال ﷺ: (لا تسبي الحمى، فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد) (2)

ويروى أنه عاد امرأة أخرى يقال لها أم العلاء، فقال لها: (أبشري يا أم العلاء فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياه كما تذهب النار خبث الذهب والفضة)(3)

ويروى أنه عاد رجلا من وعك كان به، فقال ﷺ: (أبشر، فإن الله يقول: هي ناري أسلطها على عبدي المذنب لتكون حظه من النار)(4)

هذه ـ بني ـ بعض البشارات النبوية، التي تمسح الآلام عن المرضى، وتدعوهم إلى عدم الاعتراض على الله، وهي لا تعني أبدا ما يفهمه الجاحدون من أنها دعوة لعدم العلاج؛ فمعاذ الله أن يدعو رسول الله ﷺ إلى ذلك، وكيف ذلك، وهو

3() سنن الترمذي 3/481 ح(2086)

1() صحيح البخاري 7/115 ح(5647)

2() صحيح مسلم 4/1993 ح(2575)

3() سنن أبي داود 3/184 ح(3092)

4() سنن الترمذي 3/482 ح(2088)

نفسه ﷺ كان يعالج من الأمراض التي تصيبه، بل كان يرشد إلى بعض العلاجات التي يهديه إليها ربه[1].

بل كان فوق ذلك كله يدعو المؤمنين إلى استعمال كل وسائل البحث للتعرف على الأدوية، ويخبرهم أنه يستحيل أن يكون هناك داء من غير ألا يكون هناك دواء يعالجه، ففي الحديث، قال ﷺ: (تداووا، فإن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله)[2]

وهو يشير إلى أن رحمة الله تعالى تأبى أن تنزل البلاء من دون أن تنزل معه العافية، أو تنزل المرض دون أن تنزل معه العلاج المناسب له.. ولذلك استطاع البشر ـ بإلهام الله وتوفيقه ـ أن يكتشفوا الكثير من الأدوية للأمراض التي كان الجهل يصور أنها مستحيلة الشفاء.

لذلك يا بني بشر المرضى بهذه المعاني، وأخبرهم أن الله تعالى لم يتخل عنهم بسبب مرضهم، وإنما هو معهم، وقريب منهم، ودعاؤهم مستجاب.

وأخبرهم أن الرحمن الرحيم الذي ابتلاهم بذلك، لم يرد أن يعذبهم، وإنما أراد أن يربيهم، ويمحصهم ويصلحهم.

وأخبرهم أن الله تعالى سيعوض كل آلامهم بالفرح والسعادة والسرور في هذه الدار، وفي تلك الدار..

وأخبرهم أن ذلك الخطاب الذي قال الله تعالى فيه مخاطبا رسوله ﷺ قائلا له: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} [الضحى: 3 -ـ 5]، يمكن أن يسمعوه أيضا إذا ما سلموا أمورهم لله، واكتفوا بفضل الله، ولم يدعوا المرض الذي أصاب أجسادهم يتسلل إلى أرواحهم ليملأها بالاعتراض

---

[1] () ذكرنا هذا بتفصيل في كتاب [أدوية من السماء] من سلسلة [رسائل السلام]

[2] () مسند أحمد 30/398 ح(18455)

والكدورة.

وأخبرهم خبر تلك المرأة الصالحة التي قطع أصبعها، فضحكت، فقيل لها: أيقطع أصبعك، وتضحكين؟.. فقالت: (أحدثكم على قدر عقولكم: حلاوة أجرها أنستني مرارة قطعها)

وأخبرهم عن ذلك الرجل الصالح الذي قال: (إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات: أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو فيه من الثواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني)

فبشر أولئك المرضى أنهم إن نظروا إلى الخير المخزن في البلاء، فسينسون المعاناة التي يعانونها، لأنهم سيقبضون ثمنها عاجلا وآجلا.. وسيرون يوم القيامة مصداق ما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ، والذي يقول فيه: (يؤتى بالشهيد يوم القيامة، فينصب للحساب، ويؤتى بالمتصدق، فينصب للحساب، ثم يؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان، ويصب عليهم الأجر صبا، حتى إن أهل العافية ليتمنون في الموقف أن أجسادهم قرضت بالمقاريض، من حسن ثواب الله لهم)(1) ، ويقول: (يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض)(2)

بشر يا بني بهذه التسليات المرضى إن زرتهم أو جلست معهم، واملأهم بالأمل، فلا علاج كالأمل.. ولا تنس أن تعرض هذه التسليات الإلهية للمبتلين على أولئك المعترضين، لتنظر ما عندهم من عزاء للمتألمين..

فإنهم يا بني لا يملكون شيئا.. ولذلك لا تتألم أجسادهم

(1) المعجم الكبير للطبراني 12/182 ح(12829)

(2) سنن الترمذي 4/181 ح(2402)

فقط، بـل تتـألم أرواحهم أيضـا.. وآلام الـروح أعظم وأخطـر وأدوم من آلام الجسد.

أعلم ــ يا بني ــ أنك صادق ومخلص، وأنك لم ترد بحركتك رياء ولا سمعة، ولا جزاء ولا شكورا.. وأعلم أنك ضحيت بالكثير من أجل تلك الحركة..

ولكن كل ذلك لا يكفي ليجعل من عملك عملا صالحا، ولا يكفي لأن يضعك في عداد الصالحين..

فأنت مهما بذلت من جهد، وقدمت من تضحيات، فلن تكون كأولئك الرهبان الذين زج بهم الخوف إلى الجبال، وراحوا هناك يجاهدون أنفسهم بكل ألوان المجاهدات، ويقمعونها بكل ألوان القمع.. لكنهم مع كل ذلك الإخلاص والصدق والتضحية .. كانوا من الضالين، لا من المهتدين.

ولم يكن ذلك بسبب نقص إخلاصهم ولا صدقهم، وإنما كان بسبب نقص بصيرتهم.

فلذلك أنت محتاج في كل حركة تقوم بها إلى البصيرة.. حتى لا تتخطفك شياطين الإنس والجن، لتزج بك في كل المهالك.

ولا تكتفي بذلك، بل تذهب إلى ما في قلبك من طهارة لتملأه بالدنس.. وتذهب إلى ما في نفسك من النقاء، لتملأه بالأحقاد.

تأمل كل من حولك، لترى كيف تتلاعب الشياطين بهم، لا بإخلاصهم وصدقهم، فالكل يزعم لنفسه الإخلاص والصدق.. ولكنها تتلاعب بتلك المنافذ التي يرون من خلالها الحقائق، حيث تحولها في أعينهم إلى الصورة التي يرغبون، لا إلى الصورة التي هي عليها.

لا تحسب أني أدعوك بهذه الوصية إلى السكون والنوم والكسل.. فمعاذ الله أن أدعوك إلى ذلك، وكيف أدعوك إليه، وقد وصف الله تعالى المنافقين بالكسل، فقال: { إِنَّ

الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا } [النساء: 142]، وقال: {وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى } [التوبة: 54]

وكيف أدعوك إلى ذلك، وقد فضل الله تعالى المتحركين على الساكنين، فقال: { وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: 95]

وكيف أدعوك إلى ذلك، وقد عاتب الله تعالى المستضعفين الذين رضوا بضعفهم، وسكنوا إليه، فقال: { أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا} [النساء: 97]

وكيف أدعوك إلى ذلك، وقد وبخ الله تعالى الذين ركنوا إلى الظالمين، فقال: { وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ} [هود: 113]

وكيف أدعوك إلى ذلك، وقد رمى الله تعالى بالفسق أولئك الذين استخف حكامهم بعقولهم، فقال: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ } [الزخرف: 54]

ولكني مع ذلك كله أقول لك: إن سكونك ونومك وكسلك قد يكون خيرا من تلك الحركة التي لم تعرضها على عقلك.. فالعاقل هو الذي يستبصر العواقب، لا الذي تحركه الأهواء.

والعاقل هو الذي لا يقرر في حال حماسته، ولا يتصرف في حال غضبه، ولا يسلم فكره لعواطفه، بل يجعل عقله هو المتحكم في كل دوائر ذاته.

وبذلك يا بني لن تقع في شباك الإنس والجن.. لأن الله تعالى يعصمك بالعقل الذي أنرته بنور الحقيقة من أن تصبح عبدا لأحد من الناس.

لا أقول لك: اعتزل الناس.. ولكني أقول لك: لا تكن عبدا لهم.. ولا إمعة تابعا تتحرك مثلما يتحرك القطيع.. تردد

ما يرددون من غير أن تعرف نهاية الطريق.

أما أولئك الذين يزعمون لك أنهم يخاطبونك باسم الله.. فلا تردهم، ولكن لا تستسلم لهم قبل أن تعرف سر دعواهم، ومبتدأها وخبرها، وأولها ونهايتها، ومواردها ومصـدرها.. فـأكثر من ترى من رجـال الـدين يتلقـون علـومهم من الشـياطين.. فاحذر منهم، وسـر على بصـيرة.. ولا تقبـل شـيئا أو ترفضـه، دون أن تمرره على تلك الحجج التي وضـعها اللـه تعـالى في عقلك.

يا بني.. لا أدعوك إلى السكون، ولا إلى الحركة.. ولكني أدعوك إلى البصيرة، وتقليب الأمور وفق موازين الحق حـتى لا تصبح أداة من أدوات الشيطان، وأنت تعلم أنه لم يوسوس لأبيك آدم إلا بعد أن أقسم له، وغره بكل ألوان الغرور.

فإن هدتك بصـيرتك إلى هـذه الحركـة، فسـر فيهـا على بركة الله.. متوكلا على الله.. مخلصـا لربـك.. وحينهـا سـترى بركاتهـا عليـك.. لأنـك طـرت بكلا الجنـاحين: جنـاح الإخلاص، وجناح البصيرة.. ذلك أنـه لا يمكن لطـير في الـدنيا أن يطـير بجناح واحد.

أعلم ـ يا بني ـ أن للشيطان دوره الكبير في غواية بــني آدم.. وأنه لولاه لكان شأنهم مختلفا تماما.. لكني مـع ذلـك لا أسـتطيع أن أعلــق كـل مــا يحصــل من مــآس وانحرافــات وضلالات عليـه.. ذلـك أنـه البدايـة، لكنـه ليس النهايـة.. وهـو المحــرض، لكنــه ليس الفاعــل.. وهــو الــدافع، لكنــه لا يــدفع بشدة، ولا بقهر، ولا يهيمن على من يدفعهم.. بل يفعـل ذلـك بلطف.. والمدفوعون هم الذين يختارونه، وكـان في إمكـانهم ألا يفعلوا.

فلذلك لا أستطيع أن ألقي كل اللــوم عليــه.. ولــو فعلت ذلك لحاجّني، وغلبني، وأول ما يحاجني به أولئـك المخلَصــين الذين استطاعوا أن يتخلصـوا من أسـره، وينفلتـوا من كيـده، مــع أن لهم كــل مــا لإخــوانهم من بــني آدم من اســتعداد للسقوط، وقدرة على تلقي الكيد الشيطاني.

لقد ذكر الشيطان نفسه هذا، وأخبر أن من اسـتطاع أن يسيطر على نفسه، فستكون له القدرة على السـيطرة على مكامن الوسوسة، وبـذلك لن يتمكن من إضـلاله، ولا غوايتـه، قال تعالى يذكر قوله هذا: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْــوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْـــــوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَـــــادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [الحجر: 39، 40]

بل إن الله تعالى أقره على ذلك، وقـال: { هَـذَا صِـرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} [الحجر: 41، 42]

وبــذلك، فــإن الشـيطان تـابع للإنسـان قبـل أن يكــون الإنسان تابعـا لـه.. فلـولا تلـك القابليـة الإنسـانية، لمـا كـانت الوسوسة الشيطانية.. ولذلك كان الإنســان بادئــا، ومســؤولا، ولا يســـتطيع أن يفـــر عن مســـؤوليته بســـبب وســـاوس الشياطين.

وكيف له أن يفر عن مسؤوليته، وهو يعلم أن الله تعالى الـذي مكّن الشـيطان من الوسوسـة لـه قـد مكن معـه من الملائكة من يعمل مقابل عمله.. فالشيطان يوسوس والملك يعظ ويوجه ويحذر.. وهو لا يكف كل حين من إبداء مواعظه.

والمشكلة أن الذي رضـي وسوسـة الشـيطان فتح آذان قلبه لـه، وصـمها عن سـماع ملاكـه.. ولـو سـمع لملاكـه لفـر شيطانه عنه.

إن الأمر يا بني يشبه شخصا يملك تلفازا يحـوي قنـوات كثيرة.. منها قنوات هداية، ومنهـا قنـوات تضـليل وانحـراف.. وبدل أن يختار قنوات الهداية ليستمع لهـا، راح يختـار قنـوات الضلالة.

نعم .. قنوات الضلالة ملومة فيمـا تنشـره من تضـليل.. ولها دور في ذلك.. وتحاسـب عليـه.. لكن المسـؤولية لا تقـع عليها وحدها.. بل تقع على ذلك المختار الذي اختارهـا، وكـان في إمكانه أن يختار غيرها.

أقـول لـك هـذا يـا بـني حـتى لا تقـع فيمـا يقـع فيهـا المعارضون لـربهم، المسـتدركون عليـه، الـذين جعلهم سـوء أدبهم، يتصـورون أن اللـه مـا خلـق الشـيطان إلا ليُضـل الإنسان..

ومعاذ الله أن يكون الهادي الذي وفر كل أسباب الهداية ساعيا لتضليل الخلق.. ولا منتقما منهم بذلك.

وإنما خلق اللـه الشـيطان، أو مكّن للشـيطان أن يـؤدي دوره حـتى يمحص العبـاد، ويـربيهم، بعـد أن وهبهم كـل مـا يريدونه من الحريـة والاختيـار.. ولا يمكن لمن يطلب الحريـة أن يجد طريقا واحدا.. وإلا كان مضطرا إليه.

لذلك كان الشيطان، قائد طريق الضلالة، وداعيها.. وهـو لا يلزم أحدا بسلوكها، وإنما الإنسـان هـو الـذي يختـار ذلـك.. وبملء إرادته ورغبته.. بعد أن يرى كلا الطريقين، ويشاهد كلا

النجدين.

وأنت تعلم يا بني أن الشيطان، وإن كان شرا محضا، فالله لم يخلقه كذلك، فتقدس الله أن يخلق الشر المجرد.. ولكن الشيطان هو الذي اختار لنفسه ذلك.. وهو الذي طلب من الله ـ بعد أن علم قدرته على كل شيء، وأنه لا يرفض من سأله ـ أن يتيح له استخلاص من يشبهه من بني آدم.. حتى لا يعاقب دونهم.

واقتضى عدل الله أن يتيح له ذلك.. فما كان للشيطان وحده أن يعاقب على خطئه في نفس الوقت الذي يوجد فيه من يمكن أن يصير مثله.

لا أقول هذا يا بني دفاعا عن الشيطان.. فهو لا يحتاج إلى دفاعي.. ولكني أقوله لأقرر لك الحقيقة، ولتتحمل مسؤولية أفعالك، ولا تلقيها على أحد من الناس، حتى لو كان من شياطين الإنس والجن..

فما دمت مختارا وحرا وليس هناك من يكرهك.. فأنت مسؤول عن كل تصرفاتك.. ومحاسب عليها.. وليس لك أن تبررها بأي شيء.. ذلك أن أي تبرير تذكره سيسقط في كير الامتحان الإلهي.

لقد ذكر الله تعالى ذلك عن الشيطان، وأقره عليه، فقد أخبر أنه سيقف يوم القيامة أمام من أضلهم ليقول لهم: { إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [إبراهيم: 22]

بل إن الله تعالى أخبر أن براءته من بني آدم لا ترتبط بذلك اليوم فقط، بل في كل الأيام.. فهو بعد أن يمارس دوره في التضليل والغواية، يفر تاركا لهم، غير متحمل مسؤولية جريرتهم، قال تعالى: { كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ

لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الحشر: 16]

وذكر موقفا من مواقفه، وهو يشبه كل مواقفه، فقال: { وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: 48]

فلهذا يا بني يمكنك أن تستعيذ من الشيطان ووساوسه، لكن ذلك وحده لا يكفي.. فما دمت تستمع إليه، وتحن لحديثه، وتتلقاه بكل أريحية، ولا تنفر عنه، ولا تولي وجهك لذلك الملاك الطيب الذي يبالغ في تحذيرك.. فاعلم أنك على خطر، وأن الاستعاذة وحدها لا تكفي.

ومثل من يكتفي بالاستعاذة دون أن يصد نفسه عن الغواية، مثل الذي يشرب المسكرات، ويدمن على المحرمات، ثم يقول عند بداية شربه لها وإدمانه عليها: بسم الله.

فذكرك لله، واستعاذتك به تنبيه لك حتى تراعي جانب الألوهية، وليس مجرد لقلقة لسان، ولا طقطقة مسبحة.

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف: 201].. وذكر من يحنون لوساوس الشيطان، ويستجلبونها، ويرتاحون لها، فقال: {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ } [الأعراف: 202]

فلذلك اتفق جميع الحكماء على أنه لا يمكن لأحد أن يلزم السراط المستقيم من غير أن يدقق في كل عمل يعمله، أو خاطر يخطر على قلبه، وهل هو من إلهام الملاك، أو من وسوسة الشياطين.. فلا ينجو من الشيطان إلا من حاسب نفسه، وحذرها من الاستماع له أو لوساوسه..

الفقر

سمعتك اليوم ـ يا بني ـ تحدث بعض الناس عن الفقــر.. وقد كنت قاسـيا في حـديثك لهم.. فـأنت لم تـراع حـالهم ولا وضـعهم ولا ذلـك الأمـل الـذي كـان يغمـر قلـوبهم، ولا تلـك السكينة التي كانت تمتلئ بها نفوسهم.

لقــد اعتــبرت في حــديثك لهم الفقــر صــنما ينبغي أن يُكسر.. وطاغوتا ينبغي أن يُقتل.. وأن من رضي بـالفقر كمن رضي بالكفر..

ومـا كـان لي أن أجادلـك في ذلـك.. ولكن لكـل مقـام مقالا.. ولكل حديث رجـالا.. فالمسـاكين الـذين كنت تحـدثهم لم يكن بيدهم من الحيلة ما يخرجون به من الحـال الـذي هم عليــه.. ولــذلك رضــوا بــأن يعبــدوا اللــه بعبوديــة الرضــى والتسليم.. ويعتبروا فقرهم اختبارا إلهيا.. نجاحهم فيه منــوط بعفافهم ورضاهم وتسليمهم لله.

فلذلك سلموا .. ورضوا.. وعاشوا مطمئنين فـرحين بمـا آتاهم اللـه من فضـله، حـتى لـو كـان قليلا.. مـؤملين النفس بالأجر العظيم الذي يلقونه بصبرهم ورضاهم وتسليمهم لله.

وقد كان في إمكانهم ـ لو سـمعوا تلـك الصـيحات الـتي تـدعوهم إلى تحطيم صـنم الفقـر ــ أن يهرعـوا إلى الأغنيـاء، فيسلبوهم، أو يسرقوهم، أو يختلسوا أموالهم.. مثلمـا حصـل في تلك البلاد التي ثار فقراؤها على أغنيائهـا.. ثم صـار الكـل يصارع بعضهم بعضا، ويحارب بعضهم بعضا.

وكان في إمكانهم أن يتحولوا إلى مختلسـين ومرتشـين ولصــوص وقطــاع طــرق.. لكنهم لم يفعلــوا.. ورضــوا بــأن يعيشــوا الســلام.. مكتفين بأكــل الحلال، ولــو كــان قليلا.. معتقدين بركته وفضله، ومطمئنين بأن العطاء الذي كتب لهم لم يرسل لهم جميعا، وإنما ادخر لهم هناك عند الله.. ولــذلك رضوا بحالهم، وسعدوا بما ينتظرهم من فضل الله.

هكذا هذا هو حالهم يـا بـني .. فهم ليسـوا كسـالى.. ولا مقعـدين.. ولا مفـرطين فيمـا آتـاهم اللـه من أسـباب.. لكن ليس كل من سـعى كسـب.. ولا كـل من تـاجر ربح.. ولا كـل من ألقى سنارته صادت له.. فالمؤمن يسعى، والله هو الـذي يكتب ما شاء لمن شاء كيف شاء.

كـان في إمكانـك يـا بـني أن تجلس بين أيـديهم مجلس التلميذ لا الأستاذ.. والمريـد لا الشـيخ.. فـأنت وإن كنت أكـثر منهم علما إلا أنهم أكثر منك رضا.. وأنت وإن كنت أكثر منهم قراءة للكتب، فهم أكثر منك قراءة للحياة.

لـو جلسـت إليهم يـا بـني مجلس التلميـذ من الأسـتاذ لرأيت الغنى الحقيقي الذي تخفيه أسمالهم البالية، ووجوههم الشـاحبة.. ففي قلـوبهم من كنـوز القناعـة، وجـواهر الرضـا، وأكاسير الاستعفاف والاستغناء ما لا تجـده في جميـع قصـور المترفين.

هل رأيت يا بني تلـك الابتسـامة الهادئـة الـتي تشـع بهـا وجـوههم.. إنهـا أغلى من جـواهر الـدنيا.. فلمعانهـا لمعـان الرضى عن الله.. وهو أغلى من كل شيء.

ليتك يا بني ـ قبل جلوسك لهم ـ قرأت قوله تعالى: {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْـهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الـدَّمْعِ حَزَنًـا أَلَّا يَجِـدُوا مَـا يُنْفِقُـونَ} [التوبة: 92]

إنها تصور تلـك النفـوس الطـاهرة الـتي كـانت مشـتاقة للذهاب مع رسول الله ﷺ ومشاركته جهاده في سبيل اللـه.. لكن فاقتها وفقرها وحاجتها منعتها من ذلك.. فصارت دموعها تفيض حزنـا .. لا على فقرهـا وحاجتهـا، وإنمـا على عـدم خروجها مع رسول الله ﷺ ..

هل رأيت الله تعالى في كتابه الكريم يـذم هـذه العيـون الباكيـة.. أم تـراه يثـني عليهـا، ويعظمهـا، ويعتبرهـا الأسـوة والقدوة؟

فأولئك ـ وإن قعدت بهم فـاقتهم دون الالتحـاق برسـول الله ﷺ ـ إلا أن قلوبهم كانت معه.. وأروحهم كان تسير خلفـه في كل محل يذهب إليـه.. وهم لـذلك أغـنى الأغنيـاء، وأثـرى الأثرياء.. وأين غنى الأغنياء أو ثراهم أمام تلك الجـواهر الـتي سقطت من عيونهم عند فراقهم لرسول الله ﷺ.

لقد ذكرهم رسول الله ﷺ، وهو بعيد عنهم، وهم بعيدون عنه، فقال: (إن بالمدينة لقوما ما سـرتم مسـيرا، ولا قطعتم واديـا، إلا كـانوا معكم فيـه)، قـالوا: يـا رسـول اللـه، وهم بالمدينة؟ قال: (وهم بالمدينة، حبسهم العذر)[1]

كان يمكنك يا بني أن تقرأ تلك الآيات قبل ذهابـك إليهم، لـتراهم بصـورتهم الحقيقيـة.. تلـك الصـورة الـتي لم يرهـا المستكبرون، فراحوا يطالبون رسول اللـه ﷺ بـأن يطـردهم، وألا يمكنهم من مجلسـه حـتى يحطمـوا صـنم الفقـر الـذي طالبتهم بتحطيمه.

اقرأ يا بني قوله تعـالى: {وَلا تَطْـرُدِ الَّذِينَ يَـدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَـدَاةِ وَالْعَشِـيِّ يُرِيـدُونَ وَجْهَـهُ مَـا عَلَيْـكَ مِنْ حِسَـابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ} (الأنعام:52) لتعرف قيمتهم وفضلهم عند الله..

فأولئـك الـذين سـخر المشـركون من لباسـهم وهـيئتهم ومطعمهم ومشـربهم كـانوا مريـدين للـه.. ومتـوجهين بكـل كيانهم إليه.. وكان في إمكانهم أن ينالوا من حظوظ الدنيا ما تشاؤه الأهواء.. لكنهم رضوا باختيـار اللـه لهم.. وقـد قـال ﷺ يذكرهم: (ألا أخبركم بأهل النار وأهل الجنة؟ أما أهـل الجنـة، فكل ضـعيف متضـعف، أشـعث ذي طمـرين، لـو أقسـم على الله لأبره، وأما أهل النار، فكل جعظري جواظ، جمـاع منـاع، ذي تبع)[2]

---

[1] () رواه أحمد (19/ 67)

[2] () رواه أحمد (19/ 459)

هل رأيت يا بني منزلتهم عند الله، ومكانتهم عنده، وعند رسوله، بل عند رسله جميعا.. فأولئك الذين حـدثتهم كـانوا لا يختلفون عن صحابة الرسل عليهم السلام.. ومع ذلك صـبروا معهم، ورضـوا بهم، وأثنـوا عليهم.. بـل لم يقـف معهم في المواقف الصادقة إلاهم.

ارجـع يـا بـني إليهم، فلعلـك أحـزنتهم، أو ملأت قلـوبهم بالأسى، أو أخرجت من قلوبهم ذلك الرضى، وتلك السكينة.

ارجع إليهم تلميذا لا أستاذا.. ومريدا لا شيخا.. ومريضا لا طبيبا.. والتمس دعواتهم، وتذكر عند رجوعك لهم رسول الله ﷺ وحرصه عليهم، فقد روي أن سلمان، وصـهيبا، وبلالا كـانوا قعودا في أناس، فمر بهم أبو سـفيان بن حـرب، فقـالوا: مـا أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها بعـد، فقـال أبـو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسـيدها؟ قـال: فـأخبر بـذلك النـبي ﷺ، فقـال: (يـا أبـا بكـر، لعلـك أغضـبتهم، فلئن كنت أغضبتهم، لقد أغضبت ربـك)، فرجـع إليهم، فقـال: أي إخوتنـا لعلكم غضبتم، فقالوا: لا يا أبا بكر، يغفر الله لك [1].

ولا تكتف يا بني بـأن تعتـذر لهم بلسـانك.. بـل شـاركهم حديثهم، واجلس معهم كواحد منهم، فالبركات تتـنزل عليهم، وعلى من جلس معهم.. فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم.

---

[1] () رواه مسلم (2504)

لقد رأيتك اليوم يا بني تحـدث قومـا عن الهمـة العاليـة، وأعجبني حديثك كثيرا، لكن ما ذكرتـه من مصـاديق عن تلـك الهمة لم يعجبني.. وربمـا لن يعجبـك أيضـا إن عـرفت سـبب ذلك، وحدثتك عما ورد في النصوص المقدسة عنه.

لا أريد أن أعيد عليـك مـا ذكرتـه؛ فـأنت أدرى بـه مـني، وأحسبك أخذت ما ذكرته من تلك الكتب الكثيرة التي تتحدث عن الهمم، وتـذكر خلال حـديثها عنهـا الفقـراء الـذين اغتنـوا، والبسطاء الذين اشـتهروا، والمهملين الـذين صـار لهم قيمـة وجاه.

وكـان لهـا أن تكـون ذات قيمـة علميـة أكـثر لـو ذكـرت أولئك الذين افتقروا بسبب حرصـهم على الحـق والخـير.. أو أولئك الذين آثروا الخمول على الشـهرة حرصـا على دينهم.. أو أولئك الذين آثروا المناصب الوضـيعة على الرفيعـة حرصـا على طهارة نفوسهم، وخوفا من تدنسها.

كان لها أن تذكر أولئك الذين آثروا الحق على الباطــل.. فأصابهم من إيثارهم له ما أصاب الأنبيـاء والأوليـاء من ضـيق العيش وكدر الدنيا وتغير الناس..

كان لها أن تذكر موسـى عليـه السـلام الـذي تـرك جـاه فرعون، وراح يبحث عن جاهه عند الله.. وترك قصر فرعون، وما فيه من الخدم والحشم، ليسير خائفا مترقبـا إلى مـدين، ويصبح راعي غنم، بعـد أن كـان معـدودا في حاشـية فرعـون المقربين.

وكـان لهـا أن تـذكر ذلـك الصـحابي الجليـل مصـعب بن عمير الذي ترك العز الذي يعيشه، ليلتحق بالإسلام، وهو في عز شبابه، ويتحمل الأذى بسـببه، ومن أقـرب النـاس إليـه .. ذلك الذي كان يبالغ في اهتمامه بمظهره وزينته وشعره قبـل الإسلام، وكـانت أمـه الثريـة تكسـوه أحسـن الثيـاب وأرقهـا،

وتعطره بأجمل العطـور وأغلاه، وكـان رسـول اللـه ﷺ يقـول عند ذكره له: (ما رأيت بمكة أحدا أحسن لمـة، ولا أرق حلـة، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير) [1]

لكن ذلك كله فارقه بعد إسلامه، فقد جهـد ــ كمـا يـذكر الرواة عنه ـ جهدا شـديدا حـتى إن جلـده كـان يتحشـف كمـا يتحشف جلد الحية.. وقد روي أنه أقبل ذات يـوم، والنـبي ﷺ جالس في أصحابه، عليه قطعة نمرة قد وصلها بإهـاب، فلمـا رآه أصحاب رسول الله ﷺ نكسوا رؤوسـهم رحمـة لـه، ليس عندهم ما يغيرون عنه، فسـلم فـرد عليـه النـبي ﷺ، وأحسـن عليه الثناء وقال: (الحمد للـه ليقلب الـدنيا بأهلهـا، لقـد رأيت هذا (يعني مصعبا) وما بمكة فتى من قريش أنعم عنـد أبويـه نعيما منه، ثم أخرجه من ذلك الرغبة في الخير، في حب الله ورسوله) [2]

وكان لها أن تذكر سـلمان المحمـدي.. ذلـك الـذي تـرك العز والجاه الذي كان يعيشـه في ظلال والـده الـدهقان.. ثم سـار في الأرض باحثـا عن الحقيقـة إلى أن وجـدها، بعـد أن ابتلي بالعبودية في سبيلها.. وبعد أن وصل إليها عـاش زاهـدا متواضعا.. ولم يتاجر بالحق الذي ضحى في سبيله.. ولم ينـل من المكاسب إلا مـا امتلأ بـه قلبـه من الإيمـان، ولسـانه من الحكمة.

وقد روي أنَّ سعدا دخل عليـه يعـوده في مـرض موتـه، فبكى سلمان، فقال له سعد: ما يبكيك؟ تلقى أصحابك، وترد على رسول الله ﷺ الحوض، وتُوفي رسول الله ﷺ وهو عنـك راضٍ، فقـال: (مـا أبكى جزعـاً من المـوت ولا حرصـاً على الـدنيا؛ ولكنَّ رسـول اللـه ﷺ عهـد إلينـا فقـال: (ليكن بُلْغـة أحدكم من الدنيا كزاد الراكب)، وهـذه الأسـاود حـولي ــ ولم

---

[1] () ابن سعد، الطبقات الكبرى: 3/ 116

[2] () المرجع السابق، 3/ 82.

يكن حوله حينها سوى مِطْهرة أو إِنجانة ونحوها.. عندما رأى سعد ذلك تأثر كثيرا، ثم طلب منه أن ينصحه، فقال: (اذكر ربَّك عند همَّك إذا هممت، وعند حكمك إذا حكمت، وعند يدك إذا قسمت) [1]

هذه هي نماذج الهمم العالية التي افتقرت بعد الغنى، وذلت بعد العز، وضحت في سبيل روحها بكل ما يتطلبه جسدها من الراحة والعافية والسكون.

أما تلك التي اغتنت بعد فاقة.. أو عزت بعد ذل.. أو اشتهرت بعد خمول.. فقد لا يكون الحق أو الخير هو الذي أوصلها لذلك.. وإنما وصلت إليه بمعاندة الحق، واتباع سلوك أهل الباطل، ولذلك لم تكن جديرة بأن تكون أسوة لغيرها..

وقد ورد في الحديث أن رجلا مر على رسول الله ﷺ، فقال لبعض من عنده يختبره: ما رأيك في هذا؟ فقال الرجل: هذا (رجل من أشراف النّاس، هذا والله حريّ إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفّع)، فسكت رسول الله ﷺ، ثمّ مرّ رجل، فقال له رسول الله ﷺ: (ما رأيك في هذا؟) قال: (يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حريّ إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفّع، وإن قال أن لا يسمع لقوله)، فقال رسول الله ﷺ: (هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا) [2]

وفي حديث آخر ذكر ﷺ قصة تبين معايير الهمم، ومدى الأخطاء التي يقع الناس فيها، فقال: (بينا صبيّ يرضع من أمّه، فمرّ رجل راكب على دابّة فارهة وشارة حسنة، فقالت أمّه: اللهمّ اجعل ابني مثل هذا، فترك الثّدي وأقبل إليه فنظر إليه، فقال: اللهمّ لا تجعلني مثله، ثمّ أقبل على ثديه فجعل

---

[1] رواه ابن ماجة، 4104، وأبو نعيم في الحلية، حياة الصحابة (2/ 545)

[2] قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (8/ـ 83): رواه البزار واسناده حسن، وقال المنذرى فى الترغيب (3/ـ 561) ، وقال: رواه الطبرانى والبزار وإسنادهما حسن.

يرتضع.. ومرّوا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت، سرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت أمّه: اللهمّ لا تجعل ابني مثلها، فترك الرّضاع ونظر إليها، فقال: اللهمّ اجعلني مثلها، فهناك تراجعا الحديث، فقالت: مرّ رجل حسن الهيئة فقلت: اللهمّ اجعل ابني مثله، فقلت: اللهمّ لا تجعلني مثله، ومرّوا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون زنيت، سرقت، فقلت: اللهمّ لا تجعل ابني مثلها، فقلت: اللهمّ اجعلني مثلها، قال إنّ ذاك الرّجل كان جبّارا، فقلت: اللهمّ لا تجعلني مثله، وإنّ هذه يقولون لها زنيت ولم تزن، وسرقت ولم تسرق، فقلت: اللهمّ اجعلني مثلها)[1]

لذلك كان المعيار الحاكم في الهمم هو الصلاح، وليس تلك المناصب الرفيعة التي لا تغني عن أصحابها شيئا إن افتقرت أرواحهم إلى الإيمان أو الأخلاق أو التوجه بالكلية لعالم الحق والخير.

بل إن رسول الله ﷺ ذكر أن أولئك الذين توهم الناس رفعة مناصبهم ليسوا سوى عبيد لها، انتكسوا عن حقيقة إنسانيتهم، والكرامة المرتبطة بها، ليقعوا في ذلة الروح وهوانها، ففي الحديث قال ﷺ: (تعس عبد الدّينار وعبد الدّرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه مغبرّة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في السّاقة كان في السّاقة، إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفّع)[2]

وذكر رسول الله ﷺ نموذجا عن هؤلاء الذين ارتفعت هممهم إلى إنسانيتهم الرفيعة المكرمة، فقال: (ربّ أشعث

1() البخاري- الفتح 6 (3436) ، مسلم (2550) واللفظ له.

2() البخاري- الفتح 6 (2887)

مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه) [3]

فصحح يا بني نظرتك إلى الهمم، ولا يستخفنك الــذين لا يوقنـون، أولئـك الـذين يـرون ظـواهر الأشـياء، ويغفلـون عن بواطنها، وينظرون إلى الدنيا، ويغفلون عن الآخرة، ويكتفــون بالعاجــل عن الآجــل.. مــع أن العاقــل هــو الــذي يبحث في النهايات، ولا تغره البدايات.. والمنتصر هو من يضحك أخيرا.. لا ذلك الذي يدفع في هزيمته كل مـا كسـبه فيمـا توهمـه من انتصارات.

3() مسلم (2622)

ليتك كنت معي اليوم ـ يا بني ــ عند زيارتي للحديقة الجديدة التي أقيمت في بلدتنا.. هي حديقة مملوء بكل أصناف الأزهار الجميلة التي تريك جمال الحياة، وجمال صانع الحياة، وتجعلك ترتبط بالجمال بجميع أبعاده ودرجاته.

لكني ــ أثناء ذلك الإعجاب الشديد ــ لاحظت قسما مكتوبا عليه [قسم الأزهار السامة]، فتعجبت أن تكون الأزهار التي ترمز للجمال والحياة، وسيلة للموت والفناء.

دخلت القسم فوجدت [نبتة الشوكران] بأزهارها الجميلة، مودعة في قفص صلب من الزجاج، حتى لا تمتد إليها الأيادي.. وقد كتب أمامها: (هذه الزهرات هي التي قتلت الفيلسوف الكبير سقراط بعد تناولها بلحظات معدودة)

ووجدت من بينها [زهرة الزنبق] التي تعود الكثير أن يزرعها في الحدائق، أو يضعها في المزهريات، متمتعا بجمالها من غير أن يدرك السموم التي تحويها، هي وفصيلتها جميعا.

ووجدت من بينها [زهرة الدفلى]، وهي زهرة جميلة تعودتُ أن أراها في الحدائق، ولم أعلم إلا حينئذ بأنها مع جمالها تقتل الجمال، ومع حياتها تقتل الحياة.. بل إنها حتى بعد حرقها تنتج بدخانها المنتشر سموما قاتلة.

ووجدت من بينها أزهار [التوت الأبيض]، وهي أزهار تشبه العيون الجميلة.. لكنها مع جمالها، وجمال العيون التي تشبهها شديدة السمية، تقتل كل من يقترب منها.

ووجدت من بينها الزهرة التي نسميها [ست الحسن]، ووجدت مكتوبا أمامها هذا التحذير الخطير: (تحتوي هذه الزهرة على مادة تؤدي إلى هلوسة وصعوبة في التنفس

وتشنجات عضلية، ثم تتحول إلى توت سام يـؤدي إلى مقتـل الأطفال الصغار في حال تناولهم لها)

وهكذا مررت على الكثير من الأزهار التي تمتلئ العيون بجمال منظرها، لكن تمتلئ النفوس بخبث مخبرها..

وقد جعلني ذلك أبحث عن الحكمة الإلهيـة الـتي أودعت تلك الزهور تلك السموم.. وبما أن عقلي أقصر وأضـعف من أن يعلم الحكم الإلهية جميعـا.. فقـد اقتصـرت منهـا على مـا ينفعني، وينفعك..

لقد علمت أن الله ما خلق لنـا الجمـال في هـذا العـالم لنعبر منـه فقـط إليـه، وإلى حقـائق الكـون، فنمتلئ بالمحبـة والسمو الروحي الذي يجعلنا نعيش إنسـانيتنا الحقيقيـة الـتي سجدت لها الملائكة.. وإنما خلقه أيضا ليختبرنا، ويبتلينا، حـتى لا نقع فرائس لتلك السموم التي قـد يختزنهـا بعض مـا نـراه من جمال.

فذلك الذي أخذت بعقله الخمر، وانتشى بلـذتها، وسـكر بجمـال عبيقهـا.. قتلتـه وقتلت عقلـه وروحـه ودمـرت معهـا إنسانيته.. لأنه لاحظ ذلك الجمال المؤقت الذي اصطادته بـه، ولم يلاحظ تلك السموم المودعة فيها.. ولو أنه وثق في ربه، كما وثق فيمن يحدثه عن السموم المودعة في أزهار الدنيا.. لعلم أن الله ما خلق تلك اللذة إلا ليختـبره، هـل يختارهـا، أم يختاره؟

فالله الذي خلق الخمر مملوءة بالسموم في الدنيا.. هـو الذي خلقها وبأضعاف لذاتها خالية من السموم في الآخرة.

وهكـذا حـال الـذي يـبيع قلبـه للصـور الجميلـة، فيمتلئ عشقا لها، وتمتلئ قتلا له.. فتسـقيه من خلال كـؤوس عينيـه التي لم يغضهما عما حرم اللـه عليـه كـل ألـوان البلاء، وكـل أنواع السموم.. وقد صدق الشاعر حين قال:

كل الحوادث مبداها من ... ومعظم النار من

كم نظرة فتكت في ... فتك السهام بلا قوس
والمرء ما دام ذا عين ... في أعين الغيد موقوف
يسر مقلته ما ضر ... لا مرحبا بسرور عاد

ولذلك كان من رحمة الله تعالى بعباده أن دعا تلك الأزهار الجميلة أن تستر بعض جمالها رحمة بالخلق، فليس كلهم يطيق غض بصره، ولا كلهم يستطيع أن يمنع نفسه من السموم التي تقتلها.. لقد قال الشاعر يصف ذلك:

يا راميا بسهام اللحظ ... أنت القتيل بما ترمي
وباعث الطرف يرتاد ... توقه إنه يأتيك

وقال آخر يصف ما حصل لعينيه من آثار تلك الأزهار الجميلة الممتلئة بكل أنواع السموم:

يا راميا بسهام اللحظ ... أنت القتيل بما ترمي
وباعث الطرف يرتاد ... توقه إنه يأتيك

وقال آخر:

ومن كان يؤتى من ... فإني من عيني أتيت
هما اعتوراني نظرة ثم ... فما أبقيا لي كل من

وقال آخر:

وأنا الذي اجتلب ... فمن المطالب

بل إن سيد الحكماء رسول الله ﷺ أخبر عن ذلك، وحذر منه، واعتبره سما قاتلا، فقال: (النظرة سهم مسموم من سهام إبليس من تركها من مخافتي أبدلته إيمانا يجد له حلاوته في قلبه) [1]

بل إن الله تعالى حذرنا من ذلك، وأخبرنا أن غض الطرف عن أمثال تلك السموم التي يصل صداها إلى القلب

---

[1] () قال في مجمع الزوائد ج 8 ص 63 :رواه الطبراني.

أزكى وأطهر للإنسان، قال تعالى: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } [النور: 30]

بل إن الله تعالى حذرنا أن نكتفي بجمال المظهر، مع الغفلة عن جمال المخبر في كل شيء، قال تعالى عن المنافقين: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } [المنافقون: 4]

فاحذر يا بني أن تأسرك تلك التقاسيم الجميلة، ولا تلك الأصوات العذبة، أو الروائح العطرة، فتسجنك في سجونها القاتلة.. فأنت لم تنزل لهذه الدنيا لتسجن في الزنازن، وفي جمالها المقيد المحدود.. وإنما نزلت لترتقي في فضاء الجمال المطلق.. ذلك الذي لا يظفر به إلا من نظر إلى الجمال الحقيقي، ولم يغره ذلك الجمال المزيف الذي قد يلذ العين أو الأذن أو الحواس.. لكنه يقتل الروح، ويقتل معها كل لطائف الإنسان.

نيران

لا شك أنك ـ يا بـني ــ رأيت تلـك النـيران الـتي التهمت غابات كثيرة، وفي مناطق مختلفة من العـالم هـذا الصـيف.. ولاشـك أنـك عـرفت أن سـببها يعـود إلى بعض أعـواد ثقـاب أشــعلها بعض المســتهترين لطعــام يأكلونــه، ثم نســوا أن يطفئوه؛ فتحول إلى خراب ودمار.

هكـذا تفعـل الـذنوب الـتي يقـوم بهـا المسـتهترون، ثم يغفلـون عن إطفائهـا بـدموع النـدم والتوبـة.. فتسـرع ريـاح الإصـرار لتحـول منهـا حرائـق هائلـة تـدمر الشـجر والحجـر والبشر.. وتدمر معها كل المعاني النبيلة.

لذلك لا تستهن يا بني بتلك النيران الخفية الـتي توقـدها أعواد ثقاب المعاصي، فكما أن نفس الإنسان يمكن تطهيرها ببعض المجاهـدات البسـيطة، يمكن كـذلك أن نحرقهـا ببعض المعاصي التي قد نحتقرها.

فلا تحتقر الذنوب، فاحتقارك لها احتقار لمن تعصيه بها.. واحتقارك لها أخطر منها.. وقد قال الشاعر:

كل الحوادث مبداها من ... ومعظم النار من

كم نظرة فتكت في ... فتك السهام بلا قوس

والمرء ما دام ذا عين ... في أعين الغيد موقوف

يسر مقلته ما ضر ... لا مرحبا بسرور عاد

وقد قال ـ قبل ذلك ـ سيد الحكماء رسول اللـه ﷺ لمن استصغر الذنوب التي يقوم بها اللسان: (ثكلتـك أمـك.. وهـل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟)[1]

وقال لعائشة عندما أشارت بيدها إلى قصر صفية: (لقـد قلت كلمة لو مزجت بماء البحـر لمزجتـه)، وقـال لهـا عنـدما

[1] رواه أحمد (36/ 345)، و عبد الرزاق (20303)

حكت إنسانا: (ما أحبّ أنّي حكيت إنسانا وأنّ لي كذا وكذا) (1)

هل رأيت ــ يا بني ــ كيف تفعل أعواد الثقاب في الغابات.. كذلك تفعل الذنوب بحقيقة الإنسان.. فكل ذنب يطبع طابعه في القلب والنفس والروح.. ليملأها بالغشاوة.. ثم تتراكم الذنوب لتتحول بصيرة الإنسان إلى العمى المطبق الذي لا يبصر الحقائق، وكيف يبصر من وضع على عينه الغشاوة، وعلى قلبه الحجب؟

لقد أشار الله تعالى إلى ذلك، عندما أخبر رسوله ﷺ عن نفوس المشركين والمجادلين والمعترضين.. وأنها لا تملك من الأدلة على اعتراضها أي أثارة من عقل أو علم، وإنما كل ما حصل لها بسبب الذنوب التي كدرت صفو بصيرتها، فامتلأت بالعمى، وهل يمكن للأعمى أن يبصر؟

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: 14]، ثم بين آثار ذلك الران على العلاقة بين العبد وربه، فقال: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين: 15]، فالسبب في ذلك الحجاب ليس من الله، وإنما من عند من ملأوا قلوبهم بأنواع الشبه التي تحول بينهم وبين ربهم.

وقد سبق ذلك قوله تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (10) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [المطففين: 10 ـ 13]، وهي تبين أن ذلك الحجاب كان قد صنع في الدنيا بسبب التكذيب والتلفيق والتزوير الذي مارسه المسيئون مع الحقائق والقيم التي جاءتهم بها الرسل عليهم السلام.

لقد وضح رسول الله ﷺ كيفية ذلك، وعلاقته بأعواد ثقاب الذنوب، فقال: (إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة

---

(1) رواه أبو داود (4875) ، والترمذي (2632) (2633)

سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت)[1]

لذلك احذر يا بني من الذنوب، فإن فيها مواد سريعة الاشتعال، وفيها ما يشبه القنابل النووية التي تحبط كل الأعمال.. كما قال تعالى محذرا: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ } [الحجرات: 2]

هل رأيت يا بني كيف يفعل مجرد رفع الصوت أمام رسول الله ﷺ.. فكيف بمعارضته أو السخرية مما ذكره أو دعا إليه.. فاحذر أن تغلبك نفسك وأهواؤك، فتقع في المعارضة، فيحترق كل ما بنيته في نفسك من مكارم، أو وفرته لنفسك من الأجور.

فالمشكلة يا بني .. ليست في كثرة الأعمال، وإنما في الحرص عليها.. والذي يبني المصانع والمتاجر.. ثم لا يوفر لها الحماية الكافية، ستكون عرضة للصوص ينتهبونها، فيتحول من الغنى إلى الفقر.. ومن الثراء إلى الحاجة.

لقد ذكر الله تعالى ذلك، وحذر منه، فقال: { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [الكهف: 103 - 105]

لهذا كن ورعا يا بني .. وأسرع كل حين إلى تفقد مصانعك ومتاجرك وأعمالك حتى لا تتسلل إليها أعواد الثقاب التي تحرقها.. أو الفيروسات الدقيقة التي تقتلها.. فالله الذي اختبرك بما يحبط الأعمال، وفر لك ما يحفظها.. والله الذي خلق أعواد الثقاب، وفر الماء الذي يطفئها.. والله الذي خلق الفيروسات والميكروبات وفر لها ما يقتلها.

---

[1] رواه أحمد (13/ 333) وابن ماجه (4244) ، والترمذي (3334)

وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الفجر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الظهر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم العصر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم المغرب غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم العشاء غسلتها، ثم تنامون، فلا يكتب عليكم حتى تستيقظوا) [1]

وفي حديث آخر قال ﷺ: (إن لله ملكا ينادى عن كل صلاة، يا بنى آدم قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها، على أنفسكم فأطفئوها) [2]

وإياك يا بني أن تفهم من هذه الأحاديث حروفها دون معانيها.. فتتوهم أن كل الجرائر والذنوب تُكفر بالصلاة.. كلا فالنصوص المقدسة يُفهم بعضها من خلال مجموعها..

وقد أخبر ﷺ أن شر الناس من يكثر من الصلاة والصيام وقراءة القرآن الكريم، لكنه يستعملها جميعا كأعواد ثقاب ليحرق بها كل شيء.. قال ﷺ: (يخرج في هذه الأمة قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية) [3]

لذلك الزم الورع في كل شيء.. واصغ لمن يحذرك، ولا تصغ لمن يملأك بالغرور الكاذب.. فلأن تلقى من يخوفك إلى أن تجد الأمن خير من أن تلقى من يؤمنك إلى أن تجد المخافة..

---

[1] () رواه الطبرانى فى الأوسط (2/358، رقم 2224)

[2] () قال في مجمع الزوائد ج 1 ص 299 : رواه الطبراني في الأوسط والصغير.

[3] () رواه البخاري (4/ 243) وفي (8/ 47) ومسلم (3/ 112)

فالشيطان والدنيا والأهواء كلها تـتربص بـك.. وتريـد أن تحرقك.. فكن حذرا.. فما هي إلا أيـام معـدودة.. لتلقى اللـه من غـيرك أن تحرقـك تلـك الـذنوب الـتي لا تحـرق إلا من يستهين بها، ويستصغر شأنها.

الغراس

رأيتك ـ يا بني ـ مهتما بحديقة البيت، تتعهد أشجارها وأزهارها، وتسقيها كل حين بما تحتاجه من ماء، وتزودها كل حين بما تحتاجه من سماد، وتضيف لها كل حين ما يزينها في عينك، وعين كل من يدخل إليها.

وأنا أشجعك على هذا، وأدعوك إلى الحرص عليه، فالنبات عالم من العوالم الحية التي أُمرنا بالاهتمام بها، وقد قال رسول الله ﷺ : (ما من مسلمٍ يغرسُ غرساً أو يَزْرَعُ زَرْعاً فيأكلُ منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلاَّ كان له به صدقة) [1]

بل إنه ﷺ، ونتيجة حرصه على هذا العالم، دعا إلى غرس الأشجار حتى لو لم يكن هناك أمل في الانتفاع بها، ففي نفس غرسها الثواب العظيم، قال ﷺ: (إن قامت على أحدكم القيامة، وفي يده فسيلة فليغرسها) [2]

لكني أدعوك إلى العبور من حديقة البيت إلى نفسك.. ففيها حديقة لا تختلف عن حديقة البيت.. ويمكنك أن تغرس فيها ما شئت من أزهار الفضائل.. ويمكنك أن تشذب ما شئت من أشواك الرذائل..

ويمكنك أن تحولها إلى جنة فيحاء، يُعجب بها كل من رآها، ويشم أريجها العطر كل من اقترب منها.

كما يمكنك أن تحولها إلى غابة للسباع.. ومأوى للحيات والعقارب.. يلتهمون كل ما وهبك الله من الكرامة.. ويقضون على كل ما هيئ لك من الفضائل.

1() رواه البخاري 1/ 226 رقم 2320. صحيح مسلم 3/ 1188 رقم 1552.

2() الطيالسي (2068) ، وعبد بن حميد (1216) ، والبخاري في الأدب المفرد (479)

فابذل جهدك يا بني في مراقبة حديقة نفسك.. واحذر من كل خلق سيء.. فإنه قد يقتل ما تعاهدته في نفسك من الأخلاق الطيبة.. فالرذائل تقاوم الفضائل.. مثلما تقاوم النباتات الضارة النباتات النافعة، وتقضي عليها.

واعلم يا بني أن كل ما تغرسه في نفسك من أزهار الفضائل وأشجارها سيظهر لك هناك في الحديقة التي تنتظرك.. وهي التي تتجلى لك فيها حقائق نفسك التي كانت مخفية عنك.

فإنك يا بني في ذلك العالم لن تشاهد إلا ما غرسته بيديك هنا.. فالله أكرم من أن يظلم أحدا، أو يجازيه بما لم تعمل يداه..

وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ مر ليلة الإسراء بإبراهيم عليه السلام، وهو جالس عند باب الجنة، فسلم عليه، فرد عليه السلام، وقال: (مرحبا بالنبي الصالح، والابن الصالح، مر أمتك فليكثروا من غراس الجنة، فإن تربتها طيبة، وأرضها واسعة)، فقال له ﷺ: (وما غراس الجنة؟)، قال: (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)، وفي رواية: (أقرئ على أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأن غراسها؟ سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) [1]

بل إن القرآن الكريم كله يشير إلى ذلك.. فكل آيات الجزاء تدل على أن الإنسان لن يجد في دار المعاد غير تلك البذور التي سقاها بنفسه في عالم الدنيا، قال تعالى: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [آل عمران: 180]، فهذه الآية الكريمة تبين أن ما كان يبخل به الإنسان من الذهب والفضة وغيرهما يظهر في النشأة

---

[1] الترمذي (3462)

الأخـرى بهيئـة سلسـلة من نـار تُطـوِّق عنقـه وتلتـف حولـه، وتقحمه النار.

وهكــذا صــور القــرآن الكــريم صــورة الــذين يكــنزون الأموال، ويحرمـون الخلـق من الانتفـاع بهـا، فقـال: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللـه فَبَشِّـرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَـا فِي نَـارِ جَهَنَّمَ فَتُكْـوَى بِهَـا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ} [التوبة: 34ـ، 35]، فالآيات الكريمة تـدل على أن الذهب والفضة التي بخل بها أصحابها في الدنيا، وكنزوها، هي التي تُكوى بها جباه المكنزين وجلودهم وظهورهم.

وهكــذا، فــإن كــل الحيــات والعقــارب والســموم والمفازات.. وكل ما ورد في أهـوال جهنم ليس سـوى ثمـرة لتلك البذور التي غرسها أصحابها في نفوسـهم، فتحـولت عن إنسانيتها.. وغرسوها في دار الأبدية فتحولت إلى تلك الصـور التي تتناسب مع نفوسهم.

ومثل ذلك النعيم الذي جعله الله للذين جاهدوا نفوسهم في الله، وقطعوا كل أشجار الرذائـل، وغرسـوا كـل أشـجار الفضائل.. فـإنهم لا ينعمـون فقـط بتلـك النفـوس المطمئنـة الطيبة، وإنما ينعمـون معهـا أيضـا بـذلك النعيم العظيم الـذي يتناســب مــع نفوســهم، فــالطيبون للطيبــات.. والخــبيثون للخبيثات.

فاجتهد يا بني أن تعبر من حديقة بيتـك .. لتعمـر حديقـة نفسك.. واجتهد لتعبر حديقة نفسك إلى عمارة تلك الحــدائق الغنـاء الـتي سـترحل إليهـا في رحلـة الأبـد.. وعنـدها سـتجد الأزهار التي لا تذبل.. والثمار الدانية التي لا تنقطع.

واعلم يـا بـني أن رحلتـك في هـذه الـدار أقصـر من أن تضيعها في الجدل، أو في المـراء، أو في الريبـة.. فسـارع .. ففي كل نفس من الأنفاس من المكاسب ما لا يمكن لعقلـك تخيله.. وفي كل نفس من الأنفاس ما يمكنك أن تبني به عــز

الأبد.

وأحسن ظنك بربك، فهو لم يرد لك إلا خـير.. وقـد كـان في إمكـان فضـله أن يرزقـك من غـير أن تبـذل جهـدا.. لكن عدله ورحمته بك هي التي استدعت أن تتيح لك تلـك الحريـة الـتي تجعلـك تختـار مـا يتناسـب معـك.. فالفضـائل لا يمكن فرضها.. ولا يمكن أن يُجبر أحد عليها.. وإلا لم تكن فضائل.

لذلك أتـاح لـك بـذلك البلاء الـذي أنزلـه عليـك أن تـوفر السماد لبذور الصبر والرضا.. ولـولا البلاء مـا عـرفت الصـبر، ولا ذقت طعم الرضـا.. ولا تمـيزت عن أولئـك الـذين جزعـوا واضـطربوا وراحـوا يعارضـون ربهم عنـد نـزول البلاء عليهم؛ فغرسـوا في نفوسـهم بتلـك المواقـف كـل أشـجار الرذيلـة، وقلعـوا كـل ثمـار الفضـيلة.. ولـذلك لن يـروا في مسـتقبلهم الحقيقي غير ما غرسوه بأيديهم.

رأيتك ــ يا بني ــ مثل الكثير من أترابك مهتما بتلك المسابقات والمنافسات الكثيرة التي تجري في العالم كل حين، وحول ألعاب مختلفة، منها الرياضية والفكرية وغيرها.

وأنا لا أعاتبك في ذلك؛ فالاهتمام بمثل هذه المنافسات قديم جدا.. والبشر ــ سواء أولئك الذين يمارسون تلك الألعاب نفسها، أو من يقف معهم فيها ــ يحبون أن يتفردوا بالفوز على منافسيهم، وأن يكون النصر حليفهم فيها.

ولكني أعاتبك عندما تتوقف همتك على ذلك، أو عندما يكون دورك في تلك المنافسات مثل ذلك المشاهد الكسول الذي يفرح لنصر غيره، وينسى أن يخرج من كسله، ليحقق لنفسه فوزها في مضمار الحياة الذي أقامه الله لعباده.

فالحياة يا بني ـ بكل مجالاتها ومعانيها ـ مضمار يتسابق فيه العباد، لتحقيق الكمالات التي هيأها الله لهم.. وأكثرهم فوزا فيها من نال من تلك القيم ما ترفّع به عن كل السفاسف، ونال بدلها كل المكارم.

وأكثرهم فوزا فيها من تجاوز العقبات والمطبات التي وضعت في الطريق.. والتي لا يجاوزها إلا أصحاب الهمم العالية، والاجتهاد الصادق.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (16) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18) } [البلد: 11 - 18]

وذكر كذلك الجوائز القيمة التي ينالها السابقون، والتي تختلف كثيرا عن جوائز المتأخرين المتخلفين، فقال: { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25)

خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (27) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ } [المطففين: 22 - 28]

فالعين التي يشرب بها المقربون، تختلف عن العين التي يشرب بها الأبرار، والنعيم الذي يجده أهل اليمين غير النعيم الذي يجده المقربون.. وإن كان كلاهما في الجنة، ذلك أن الجنة درجات كثيرة، والتفاوت بينها عظيم، وقد قال رسول الله ﷺ: (إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة أهل الغرف، كما تراءون الكوكب الدري الغارب في الأفق الطالع، في تفاضل أهل الدرجات)، فقالوا: يا رسول الله، أولئك النبيون؟ فقال: (بلى، والذي نفسي بيده، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل) [1]

بل إن الله تعالى ذكر ذلك في القرآن الكريم، وأشار إلى أن التنافس في درجات الآخرة أعظم من التنافس في درجات الدنيا، فقال: {انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} [الإسراء: 21]

فارفع همتك يا بني لأن تكون من أولئك المُنعم عليهم الذين تحقق لهم الفوز بالدرجات العالية في الوقت الذي ظفر فيه غيرهم بما هو دونها بكثير.. لقد ذكرهم الله تعالى، فقال: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: 69]

وأول علامات هؤلاء أن تكون منازلهم قريبة من منازل المكرمين بالقرب الإلهي من الرسل والأنبياء والأولياء.. وقد ورد في الحديث أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله متى قيام الساعة؟ فقام النبي ﷺ إلى الصلاة،

---

[1] () رواه أحمد (2/ 339)، والترمذي برقم (2556)

فلما قضى صلاته قال: أين السائل عن قيام الساعة؟، فقال الرجل: أنا يا رسول الله قال: ما أعددت لها؟ قال: يا رسول الله ما أعددت لها كبير صلاة ولا صوم إلا أني أحب الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: (المرء مع من أحب، وأنت مع من أحببت) [1]

فانظر إلى هذه الهمة العالية التي جعلت الرجل لا يكتفي بأداء شعائر الدين التي كلف بها، وإنما يضيف إليها تلك المحبة المقدسة التي جعلته مرتبطا بالدين بقلبه وروحه ووجدانه، وليس بجسده فقط.

وانظر معها إلى همة ذلك الصحابي الذي قدم بعض الخدمات لرسول الله ﷺ، فأراد أن يكافئه عليها، فقال له: اسألني.. وكان في إمكانه أن يسأله عما يشاء من شؤون الدنيا، لكنه قال له: إني أسألك مرافقتك في الجنة.. فقال له رسول الله ﷺ متثبتا: أو غير ذلك، قال: هو ذاك، فقال ﷺ: (فأعني على نفسك بكثرة السجود) [2]

أرأيت كيف أكبر رسول الله ﷺ همته العالية، لكنه أخبره أن تلك الهمة تحتاج إلى المزيد من العمل، مثلما يحتاج من يريد الفوز بالريادة في المسابقات إلى بذل الكثير من الجهد.

فالقرب من رسول الله ﷺ هو التحقق بالفوز الأعظم، ذلك أنه ﷺ هو أول الفائزين في سباق الحياة.. ومن قرب منه كان حريا بالفوز فيها، وقد وصف رسول الله ﷺ أولئك الذين نالوا القرب منه، ودرجاتهم، فقال: (إن من أحبكم إلي، وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلي، وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة: الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا

---

[1] () رواه البخاري (3688)، ومسلم (2639)

[2] () رواه مسلم (2/ 52) (489)، وأبو داود رقم (1320)، و النسائي 2/ 227.

الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قـال: المتكـبرون)[1]

فلذلك يمكنك أن تتجاوز يـا بـني كـل الأزمنـة والأمكنـة، لتظفر بمعية رسول الله ﷺ، والقرب منه، فهو ليس محصورا في زمـان دون زمـان، ولا في مكـان دون مكـان، وقـد قـال رســول اللهﷺ لمن ســأله: (أرأيت من آمن بــك ولم يــرك وصدقك ولم يرك؟)، فقـال ﷺ: (طـوبى لهم، ثم طـوبى لهم، أولئك منا، أولئك معنا) [2]

بل إنه ﷺ ذكر مـا هـو أعظم من ذلـك، حيث قـال: (من أشد أمتي لي حبا ناس يكونـون بعـدي، يـودُّ أحـدهم لـو رآني بأهله وماله) [3]، وقال: (إن أشدَّ أمتي لي حبـا قـوم يكونـون بعدي يودّ أحدهم أنه أعطى أهله وماله وأنه رآني) [4]

فارفع همتك يا بني لأن تكون من هـؤلاء، لتفـوز بـأعظم جائزة في الحياة جميعا.. حياة الـدنيا والآخـرة.. وهي القـرب من رسـول اللـه ﷺ.. فهـو البطـل الحقيقي.. بـل هـو أعظم أبطال الدنيا.. ومن الغريب أن تتعلق بجميع أبطال الــدنيا، ثم لا تتعلق به، فلا ينال المكارم إلا من تعلق به بكل كيانه..

---

[1] رواه الترمذي (2018)

[2] رواه الطبراني في الأوسط والكبير بنحوه، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (10/ 67)

[3] رواه أحمد 5/ 170

[4] رواه أحمد 5/ 170

لا تتوهم يا بـني أني عنـدما أدعـوك إلى الجـد والاجتهـاد وأخذ كتاب حياتك بقوة، أني أنهاك عما فُطرت عليه من حب اللهـو واللعب والاسـتجمام والراحـة.. فمعـاذ اللـه أن أحـرم عليك مـا أحلـه اللـه لـك.. ومعـاذ اللـه أن أتـدخل بهـواي في الفطرة التي فطرك الله عليها؛ فأغيرها وأبـدلها، فمـا صـارع الفطـرة أحـد إلا صـرعته، ولا غالبهـا إلا غلبتـه، ولا شـاد أحـد الدين إلا غلبه.

ولكني يا بني أدعـوك إلى أمـرين يحميـان لهـوك من أن يصبح حبلا من حبال الشيطان يدليـه لـك ليجـرك إلى حزبـه.. فاسمع حديثهما من أبيك الحريص عليك.. فهـو لم يسـتفدهما بالبحث والنظر، وإنما استفادهما من كلمات ربـك المقدسـة، ومن الحكماء الذين عبروا عن مقاصدها، وبينوا أغراضها.

أمــا أولهــا.. فــأن تعطي للهــوك بعض وقتــك .. لا كــل وقتك.. فإن الله تعالى ما خلقـك لتلهـو وتلعب، وإنمـا خلقـك لتجاهد نفسك في سبيله، حتى تحقق لها مكارمها، وترقى بها إلى الكمالات التي أتاحها لها.

فلذلك اجعل لهوك مثل نومك، لا تلجأ إليه إلا بعد تعبك.. ومثل طعامك لا تلجأ إليـه إلا بعـد جوعـك.. ومثـل شـرابك لا تلجأ إليه إلا بعد ظمئك.. فليس النوم ولا الطعام ولا الشراب إلا من ضرورات الحياة التي من تناولها بقدرها اسـتفاد منهـا، ومن أسرف فيها أضرت بحياته وصحته.

ولهذا قال الله تعالى آمرا بالأكـل والشـرب، وناهيـا عن الإسراف فيهمـا: {يَـابَنِي آدَمَ خُـذُوا زِينَتَكُمْ عِنْـدَ كُـلِّ مَسْـجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف: 31]

ولو أنك تأملت يا بني معنى هذه الآية، ومعنى النهي عن الإسراف لوجدت رحمة الله تعالى في نهيه عنه.. فالإسـراف

يرفع من الأشياء بركتها وقيمتها، ومن أسرف في أكل شيء ذهبت عنه لذته، لزوال بركته عنه.. ولذلك كان الأكل بعد الجوع ألذ للطعام من الأكل بعد الأكل، ومن غير حاجة.

وهكذا الأمر بالنسبة للهو واللعب؛ فإنه إن استغرق كل أوقاتك، لم تخسر أوقاتك فقط، وإنما خسرت لذتك في ذلك اللهو واللعب، حيث يصبح شيئا لا قيمة له، ولا تأثير له في نفسك، مثل ذلك الطعام الزائد الذي قد يضرك أكثر مما ينفعك.

ولهذا ورد في حكم الأنبياء والأولياء برامج تحدد مواقيت الجد واللعب، فاستفد منها، ونظم حياتك على أساسها، ولا تدعها لكل أولئك الغافلين الذين يريدون أن تخرج من الدنيا، وأنت خالي الوفاض من كل المكارم، فارغ الجيوب من كل الأجور.

فقد ورد في صحف إبراهيم عليه السلام: (على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن يكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه عز وجل، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيما صنع الله عز وجل إليه، وساعة يخلو فيها بحظ نفسه من الحلال فإن هذه الساعة عون لتلك الساعات واستجمام للقلوب وتوزيع لها) [1]

وورد في حكمة آل داود عليه السلام: (عبرة للعاقل اللبيب أن لا يشغل نفسه إلا في أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يلقى فيها إخوانه الذين ينصحونه في نفسه ويخبرونه بعيوبه، وساعة يخلو بين نفسه وبين ربها فيما يحل ويجمل فإن في هذه الساعة عونا على هذه الساعات) [2]

وحدث الإمام الحسين أنه سأل أباه الإمام علي عن

1() الخصال: ٢ / ٥٢٥.

2() كنز العمال: 5381.

مدخل رسول الله ﷺ، فقال: (كان دخوله لنفسه مأذونا له في ذلك، فإذا آوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزء لله، وجزء لأهله، وجزء لنفسه، ثم جزأ جزءه بينه وبين الناس فيرد ذلك بالخاصة على العامة، ولا يدخر عنهم منه شيئا، وكان من سيرته في جزء الأمة، إيثار أهل الفضل بإذنه، وقسمه على قدر فضلهم في الدين، فمنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج) [1]

وهكذا نرى كل الحكماء وأئمة الهدى يدعون إلى تقسيم الأوقات، وتنظيمها، حتى لا يستحوذ الشيطان عليها، فالوقت هو الحياة، ومن ضيع وقته في اللهو واللعب، لم يجد في آخرته ما يأنس به، ولا ما يأنس له، وكان ندمه على التفريط أعظم من كل تلك اللذات التي توهم أنه عاشها.

وقد قال الإمام علي: (للمؤمن ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب نفسه، وساعة يخلي بين نفسه ولذتها فيما يحل ويجمل) [2]، وقال: (إن ليلك ونهارك لا يستوعبان لجميع حاجاتك فاقسمها بين عملك وراحتك) [3]

واجتهد يا بني في أن تختار لجدك أفضل الأوقات وأحسنها، فأنت بجدك لا بهزلك، وباجتهادك لا بلهوك، وقد قال الإمام علي في كتابه للأشتر : (اجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت وأجزل تلك الأقسام، وإن كانت كلها لله إذا صلحت فيها النية، وسلمت منها الرعية) [4]

وأما الثاني.. فاحذر أن يخالف جدك هزلك، فإن ذلك

1() بحار الأنوار: 16 / 150 / 4.

2() غرر الحكم: 7370.

3() غرر الحكم: ٣٦٤١.

4() نهج البلاغة: الكتاب ٥٣.

مثل أكلك للطعام الذي يضرك.. والشراب الذي يؤذيك.. ولذلك جنب هزلك الحرام والشبهات، واحرسه بحدود الشرع، فما جعل الله دواء راحتك فيما حرم عليك.

واعلم يا بني أن الشيطان إن لم يطق أن يوسوس لك في جدك، فإنه يطيق أن يوسوس لك في هزلك، فاحذر أن تدع له الفرصة لذلك، فإن قوما من الناس راحوا يستمعون إلى وساوسه، فحول دينهم لهوا ولعبا.

وقد ذكر الله تعالى ما قاله موسى عليه السلام لقومه حين خلطوا لهوهم ولعبهم بدينهم، فقال: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} (البقرة:67)

بل إن الله تعالى حذرنا من اتباع سبل أولئك المستهزئين بدين الله، الذين راحوا يستعملونه مادة للضحك واللعب، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أو تُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أو لِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ} (المائدة:57 ـ 58)

وأخبر عن المصير الذي أعده لهؤلاء المستهزئين، فقال: {ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً} (الكهف:106)

لا تحسب أن هذا خاصا بأقوام الأنبياء، بل هو عام في كل العصور.. فأنت ترى تلك الأساطير التي وضعت في حق الأنبياء لتشوه حياتهم وقيمهم ودينهم، ولم يكن القصد منها إلا اللهو واللعب، وقد قال تعالى محذرا منها: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ } [لقمان: 6]

وهكذا تلك المسلسلات والأفلام والروايات التي تشوه النبوة، أو تشوه قيم الدين، أو تسخر منه.. فاحذر منها، فهي

مادة الوسوسة التي ينطلق منها الشيطان ليحـول دينـك إلى دينه، ويصرفك عن دين الله الذي جاءت به رسـله، لقـد قـال الله تعالى يذكر هؤلاء: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُـوضُ وَنَلْعَبُ قُـلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِـهِ وَرَسُـولِهِ كُنْتُمْ تَسْـتَهْزِئُونَ} (التوبـة: 65)

واحذر يا بـني من كـل لهـو يسـيء إلى أخلاقـك، ويرفـع عنك الحياء، أو يجعلـك تـرى مـا حـرم عليـك النظـر إليـه، أو تستمع إلى ما حرم عليك الاستماع له.. فإن ذلك اللهو سيمر على كـل القيم النبيلـة الـتي اكتسـبتها في سـاعات جـدك، فيحرقها، ويدمرها، ويصبح لهـوك حينهـا عـدوك الـذي يقضـي عليك.

ولا تذكر بعد هذا يا بني ما يـذكره الغـافلون من أن هـذا تضييق لمجال اللهـو واللعب.. فيسـتحيل على فضـل اللـه أن يضيق.. ولكن الشيطان هو الذي يـوهمهم ذلـك، ويصـور لهم أن اللهو لا يكون إلا في الحرام وبالحرام.

مـع أنـك لـو بحثت يـا بـني عن مجـالات اللهـو المبـاح لوجدتها كثيرة جدا، يمكنك اقتناصـها والاسـتفادة منهـا لجـدك وهزلـــك.. وإلا فســيغير هزلـــك على جـــدك، ويحطم كـــل المكاسب التي كسبتها، أو القيم التي اجتهدت في تحصيلها.

لعلك ـ يا بني ـ شاهدت ذلك الاهتمام الشديد من البشر بعالم الصور.. وهو من العوالم التي اقتضاها اسم الله المصور.. ولولاه لم يكن لهذا العالم وجود.. فكل صورة في الكون من تصوير الله.. كان ذلك في البشر أو في الحجر أو في الشجر.. وكان ذلك التصوير جميلا أو دميما.. فكل صورة في الكون ترجع للبارئ المصور الذي اختار لها ذلك الشكل، وتلك التقاسيم.

ولذلك احذر أن تحجبك الصور عن المصور.. أو تحجبك الأشكال عن مبدعها الذي أبدعها على ذلك الشكل، وكان في إمكانه ولا يزال تحويلها إلى أي شكل شاء، أو أي صورة أراد.

لعلك قرأت في ذلك قوله تعالى، وهو يخاطب الإنسان الممتلئ بالغرور: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} [الانفطار: 6 - 8]

أتدري يا بني لم ربط الله تعالى الصور بالغرور.. ولم نبه أولئك المغترين إلى أن عالم الصور بيده.. وأنه هو الذي يصور من يشاء كيف يشاء؟

إن الله ربط ذلك بذلك تنبيها إلى تلك الجاهلية الأولى التي كانت تميز الناس على أساس أشكالهم وألوانهم وهيئات أبدانهم.. وهي نفس الجاهلية التي نشأ عنها الاستعمار والاستكبار وكل أصناف الظلم.. وهي لا تزال سارية في أولئك الذين يعبدون الصور، ويملأون بها صفحات الجرائد والمجلات وواجهات المحلات.. لتُعبد جميعا من دون الله.

وهي لا تزال سارية في تلك المحلات الكثيرة التي أنشئت لتغيير خلق الله، والتي اُستغل بسببها الطب وعلوم

كثيرة، لتحويل الشيوخ إلى شباب، والعجائز إلى صبايا.. وكأن الحياة ليس سوى تلك الصورة الحسية التي اختصرت فيها، وجثا الخلق راكعين وساجدين بين يديها.

فلذلك ارحل يا بني من كل هذه العوالم الممتلئة بالعُقد.. لترى حقيقة عالم الصور.. وتخرج من الأوهام المرتبطة بها..

فما تراه من صور ليس سوى أقنعة للروح.. وهي أقنعة قد تكون متناسبة معها، أو لا تكون متناسبة معها.. فلذلك لا يغرنك جمال المظهر، فتغفل عن المخبر.. وتذكر قول الشاعر:

على وجه مي مسحة ... وتحت الثياب العار لو

ألم تر أن الماء يخبث ... وإن كان لون الماء

بل تذكر قوله تعالى، وهو يصف المنافقين: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } [المنافقون: 4]

والمنافقون ليسوا أولئك الذين عاصروا رسول الله ﷺ فقط.. بل هم موجودون في كل الأزمنة.. فكم سعى الخلق خلف خطباء النفاق والفتنة، أو علماء الدجل والبهتان، لا لأثارة من علم، أو بقية من حكمة، وإنما لصباحة في وجوههم، وفصاحة في ألسنتهم.. فسقوهم منها كل ألوان الكدر والضلالة.

فاحذر أن تغفل بالصورة عن الحقيقة.. فالله ما خلق الصور في هذا العالم إلا ليختبرنا بها.. هل نرى الحقائق، ونكتفي بها.. أم نسعى بأهوائنا إلى تلك الصور التي زينت لعيوننا، فنحجب بها عما يختبئ خلفها من الحقيقة؟

احذر يا بني أن تفقد آخرتك بتلك الزينة التي زينت بها تلك الصور.. أو الفتنة التي وضعت فيها.. فهي كيد الشيطان

الأعظم، وأحبولته الكبرى، ومصيدته العظمى.

تذكر عند كـل صـورة جميلـة تراهـا، وتخـاف أن تسـلب عقلك منك أنها ليست سـوى قنـاع، سـتذهب بـه الأيـام، وأن صورة الحقيقة هي التي تبقى، وما عداها سيفنى.

وتذكر معهـا أن عـالم الصـور الحقيقي لن يبـدأ في هـذا العالم، ولا في هـذه النشـأة.. فهي نشـأة اختبـار وبلاء.. ومن مقتضياتها عـدم انسـجام الصـور مـع الحقـائق، حـتى يتحقـق الامتحان.. أما في العالم الآخر.. والنشـأة الأخـرى.. فالصـور منسجمة مع حقائقها، والأشكال منسـجمة مـع الطبـائع الـتي اكتسبها أصحابها.

ولتعرف حقيقة ذلك يا بني اقرأ ما ورد في كلمـات اللـه المقدسة، لتعلم أن الانسجام بين الحقـائق والأشـكال قـانون من قوانين الآخرة..

وقـد ورد في الحـديث عن رسـول اللـه ﷺ أنـه وصـف المستكبرين الظلمة، أولئك الذين قد تكـون أقنعتهم الجميلـة في الـدنيا هي سـبب كـبرهم وغـرورهم وظلمهم، فقـال: (يحشـر المتكـبرون يـوم القيامـة أمثـال الـذر[1] في صـور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان)[2]، وفي روايـة: (يبعث الله يوم القيامة ناساً في صور الذر يطؤهم الناس بأقدامهم، فيقال: ما هؤلاء في صور الذر؟ فيقال: هؤلاء المتكـبرون في الدنيا) [3]

هل رأيت يا بني هذه الصـورة البشـعة الـتي هي حقيقـة

---

[1] () قدرٌ ضئيل جدًّا، بالغ الصِّغر، مُثِّل بالنملة الصغيرة أو برأس النملة أو الهباءَة المنبثّة في الهواء ويمكن رؤيتها في شعاع الشّمس الداخل من النافذة.

[2] () رواه الترمذي (2492)، وأحمد (2/ 179) (6677)، والبخاري في (الأدب المفرد) (557). قال الترمذي: حسن صحيح

[3] () رواه البزار كما في (مجمع الزوائد) (10/ 337)

كل مغتر ومتكبر بجماله أو صورته أو أي شيء منه.. إنه سيكون قصيرا حقيرا يشبه ذلك النمل الذي كان يدوسه في الدنيا بقدميه.

فلذلك كن موقنا أن كل أولئك الذين يتباهون بجمالهم، ويسخرون من دمامة غيرهم، سيكون هذا هو حالهم في تلك الحياة الأبدية.. فلذلك لا تنتظر حتى تراهم على تلك الحال في الآخرة.. بل انظر إليهم بها في الدنيا، حتى لا يجعلهم الشيطان مصايد يصطاد بها عقلك وقلبك وحقيقتك.

وهكذا يذكر القرآن الكريم أولئك الذين عبدوا وجوههم في الدنيا من دون الله.. ووقفوا أمام المرائي خاشعين لها.. مكتفين بالصلاة لها عن الصلاة لله، بأنهم سيسيرون يوم القيامة على تلك الوجوه.. لأنها كانت سبب الحسرة العظيمة التي حصلت لهم.. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: 34]

وقد فسرها رسول الله ﷺ ـ بعد أن رأى استغراب بعضهم في ذلك ـ فقال: (أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟)[1]

فاحذر يا بني أن تكون وجهتك وجهك، وقبلتك صورتك، فيحصل لك ما حصل لهؤلاء.. بل اجعل وجهتك الحقيقة، وقبلتك نحو ربك.. فهو المصور الذي اختبرك بالصور.. وصورتك من بين الصور.. وإن لم تعجبك في هذا العالم، فيمكنك أن تجد ما هو أجمل منها في ذلك العالم.. وفي تلك الحياة الأبدية.

فالصور في ذلك العالم، وفي الحياة الأبدية من صنع البشر.. فعلى أساس حقائقهم تكون صورهم، وعلى أساس أخلاقهم تكون خلقتهم.. فاسع لأن تكون صورتك هناك أجمل الصور.. فذلك العالم هو الحقيق بجهدك واهتمامك.. لأنه

[1] () رواه البخاري (6158)، ومسلم (7265)

مستقبلك، وما الدنيا سوى مرحلة ستجتازها بأي صورة تكون عليها.

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: {وُجُــوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِـرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَـاظِرَةٌ (23) وَوُجُـوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِـرَةٌ (24) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ} [القيامة: 22 - 25]

وقال: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِـرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَـرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42)} [عبس: 38 - 40]

وقــال: {يَــوْمَ تَبْيَضُّ وُجُــوهٌ وَتَسْــوَدُّ وُجُــوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَـةِ اللـه هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [آل عمران: 106، 107]

بل إن رسول اللـه ﷺ أخـبر أن في الجنـة سـوقا خاصـة بالصور، وأن أي شخص يرغب في أي صـورة يريـد أن يكـون عليها، يُحقق له طلبه من غير أطباء، ولا عمليات تجميل.. بل مجرد الرغبة في الصورة تجعله مصورا بها.. وكيـف لا تجعلـه كذلك، وهو يرى تجليات اسم الله المصور في كل شيء.

فلذلك اعرف الله المصـور.. واحـذر من فتن الشـيطان المرتبطة بالصـور، فقـد هـدد بـني آدم فقـال: { لَأَتَّخِـذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًـا (118) وَلَأُضِـلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُـرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْـقَ اللَّهِ } [النسـاء: 118، 119]

ولن يكــون لــك ذلــك إلا إذا عــرفت حقــائق الأشــياء.. وانشغلت بمعرفتها عن الأشكال التي تكون عليها.. فالشــكل قد يمثل الحقيقة، وقد يكون حجابا دونها.

مالي يا بني كلما حدثتك عن الـرزق انصـرف ذهنـك إلى المال.. فهل ترى الرزق محصـورا في المـال؟ .. أم تـرى أن الذي لم يُرزق مالا لم ينل حظه من اسم اللـه الـرزاق الـذي تجلى لكـل شـيء؟.. أم تـرى أن المـال هـو أسـاس الأرزاق ولبها، وأن من فقده كان كمن فقدها جميعا؟

ليس الأمر كذلك يا بني .. فما المـال إلا رزق من أرزاق اللـه.. وفضـل من فضـله.. وقـد يـرى اللـه بفضـله وكرمـه ورحمته بعبـاده أن في إعطائـه منعـا، فيمنعـه، لا بخلا، وإنمـا كرما.. فالكريم الحقيقي هو الذي يمنعك مما يضرك حتى لـو اشتاقت له نفسك، أو حن إليه طبعك..

لقد قال رسول الله ﷺ في الحديث القدسـي حاكيـا عن ربه سبحانه وتعالى هـذا المعـنى: (وإن من عبـادي المؤمـنين لمن يسألني الباب من العبادة فأكفه عنـه، ولـو أعطيتـه إيـاه لدخله العجب وأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمـنين لمن لا يصلحه إلا الغنى ولـو أفقرتـه لأفسـده ذلـك، وإن من عبـادي المؤمنين لمن لا يصلح له إلا الفقر، ولو أغنيتـه لأفسـده ذلـك وإن من عبـادي المؤمـنين لمن لا يصـلحه إلا السـقم ولـو أصححته لأفسده ذلـك، إنى أدبـر عبـادي بعلمي بقلـوبهم إنى عليم خبير) [1]

ولـذلك انصـرف بـذهنك عنـد ذكـر الأرزاق إلى روحـك وعقلك وقلبك وكل لطائفك .. فهي كلها تحتاج أرزاقـا خاصـة بهـا، وأقواتـا لا يمكن للمـال أن يلـبي مطالبهـا، ولا أن يسـد حاجاتها.

ولا تختصر الإنسان في ذلـك الجسـد الـذي لا يشـكل إلا جزءا ضئيلا فانيـا من حقيقتـه.. فالإنسـان روح وجسـد.. وفي الروح كل أنواع اللطـائف الـتي لا حاجـة لهـا للمـال، بـل قـد

[1] () ابن أبى الدنيا في الأولياء (ص 9، رقم 1) ، والحكيم (2/232) ، وأبو نعيم في الحلية (8/318) ، وابن عساكر (7/95)

يفسدها، ويؤثر فيها، ويحولها عن عالمها إلى العوالم الدنيا، حين تترك رحلتها الأبدية في العالم الأسنى لتجعل كل همها ملء خزائنها من اليواقيت والجواهر، لا من الخلال والمكارم.

لقد ذكر الله تعالى ذلك حين أخبر عن أولئك الذين تثاقلوا إلى الدنيا، وباعوا كلمات الله بأجور محدودة، وثمن قليل، فقال: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [البقرة: 174]، ثم بين الجزاء الذي ينتظرهم، أو ثمن السلعة التي باعوها، فقال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ} [البقرة: 175]

ولذلك اجعل كل همك يا بني في أرزاق الروح، تلك الأرزاق التي أخبر عنها رسول الله ﷺ، فقال: (إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين، فقد أحبه، والذي نفسي بيده، لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه)، قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: (غشمه وظلمه، ولا يكسب عبد مالا من حرام، فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يترك خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث) [1]

إن هذا الحديث، وفي كل حرف من حروفه يبين لك حقيقة الرزق ومجالاته، وأنها أعظم من أن تحصر في ذلك المال، وخاصة إن كان حراما.. فهو حينها وبال على صاحبه حتى لو تصدق منه، فتلك الآثار التي يتركها في القلب والروح لا يمكن علاجها لا بالصدقات، ولا بغيرها.

---

[1] رواه أحمد (6/ 189)

لقد أخبر رسول الله ﷺ عن بعض آثار ذلك الشغف بالمال، واختصار الرزق فيه، فقال: (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)[2]

وإياك يا بني أن تترك ما ذكرته لك من النصوص المقدسة لتردد علي ما يذكره الغافلون من أقوال الشعراء الذين يهيمون في كل الوديان، فتذكر لي قول من قال:

المال يستر كل عيب	والمال يرفع كل وغد
فعليك بالأموال فاقصد	اضرب بكتب العلم

أو قول الآخر:

إذا قل مال المرء قل	وضاقت عليه أرضه
وأصبح لا يدري وإن	أقدامه خير له أم

فما صدقوا فيما ذكروا.. فما أكثر أصحاب الأموال الذين ذهب جهلهم بشرفهم، وصاروا محل سخرية من الناس..

توهم يا بني لو أن الله أعطاك من كل أموال الدنيا، ثم أخذ ما أعطاك من العلوم أو الأخلاق، فصرت جاهلا سفيها.. فما تنفعك تلك الأموال حينئذ؟ وهل يمكن أن تفعل بك إلا مثلما فعل الدب بصاحبه حين قتله، وهو يتوهم أنه يذب عنه؟

فكذلك الأموال عندما تقع بيد الجاهلين، والذين يبحثون عن مصادر يصدرونها بها، حتى يكون انتفاعهم بها كاملا شاملا.. فيقعوا حينذاك في الإسراف والترف، ومن وقع في الإسراف والترف هلك، كما قال تعالى: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا } [الإسراء: 16]

2() رواه أحمد 3/ 323 (14515) وعبد بن حميد 1143 والبخاري، في (الأدب المفرد) 483 ومسلم 8/ 18 (6668)

ولـذلك لا تحـزن يـا بـني عن تلـك الأرزاق الـتي فاتتـك، فأنت وأغنى أغنياء الدنيا، تأكلون بفم واحـد.. وتسـتوي معهم في الرؤية والسـمع وكـل المـدارك.. وإذا أويتم إلى فرشـكم أويتم إلى فـرش بقـدر أجسـامكم.. فلـذلك كـان كـل ذلـك الطعـام والقصـور الـتي يملكهـا الأثريـاء أشـياء زائـدة أنت مستغن عنها، وأنت مستو معهم في المصالح المرتبطة بها.

بل إن الله تعالى قد يرزقك من لذة الطعام البسيط مـا لا يرزقهم في الطعـام الفـاره الـذي يتناولونـه.. ويرزقـك من الراحة والسعادة في الفراش الخشن الـذي تـأوي إليـه مـا لا يجدون مثله في الفرش الناعمة التي يستلقون عليها.. فاللـه الذي رزق الطعام هو نفسه الـذي يـرزق لذتـه.. والـذي رزق الفـراش هـو الـذي يـرزق الراحـة والسـكينة.. ولا ارتبـاط لأحدهما بالآخر.

فلـذلك لا تتـوهم يـا بـني أن اللـه تعـالى رزق الأغنيـاء وتركك.. بل إنه ربما يكون قد رزقـك من راحـة البـال مـا لم يرزقهم.. مع أن كـل مـا رزقهم سيصـل إليـك، فهم ينتفعـون بأموالهم، لكن لا يملكونها، بل لا يملكون منهـا إلا مـا يأكلونـه أو يشربونه .. وأنت لا تختلف معهم فيه.

فلذلك لا يصح أن تذل لهم لأجل غناهم، أو تـرى نفسـك أهون منهم لأجل أمـوالهم، بـل افعـل مـا فعلـه ذلـك الصـالح الذي قال له بعض الأمراء: سلني حاجتك؟ فقال الصالح بكـل عـزة: (أولي تقـول هـذا، ولي عبـدان همـا سـيداك)، فقـال الأمير: ومن هما؟ قال : (الحرص والأمل)

هل رأيت يا بني النظرة الثاقبة لهذا الحكيم الصالح، فهو لم ينظر إلى ما في خزائن الأمير من أموال، وإنمـا نظـر إلى ما في خزائن قلبـه ونفسـه من الأخلاق.. فتلـك الأخلاق الـتي يجـدها الإنسـان في نفسـه، أو ييسـر اللـه عليـه اكتسـابها لا يمكن لأموال الدنيا جميعا أن تعوضها.

لذلك افرح بنعمة الله عليك، وتذكر أولئك الـذين يحنـون

إلى ما عندك من فضل الله.. فإنـك إن نظـرت إليهم عظمت نعم الله عليك، ولم تحتقرها، وقـد قـال رسـول اللـه ﷺ: (إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المـال والخلـق، فلينظـر إلى من هـو أسـفل منـه)، وفي روايـة: (انظـروا إلى من هـو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجــدر أن لا تزدروا نعمة اللـه عليكم)، وفي روايـة: (انظـروا إلى من هـو أسفل منكم في الدنيا، وفوقكم في الدين، فذلك أجـدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) [1]

وقد قال بعض الصالحين معـبرا عن تـأثير العلاج الـوارد في هذا الحديث في نفسه: (كنت أصـحب الأغنيـاء فمـا كـان أحد أكثر هما مني، كنت أرى دابة خيرا من دابتي، وثوبا خـيرا من ثــوبي، فلمــا ســمعت هــذا الحــديث صــحبت الفقــراء فاسترحت)

وصدق في ذلك، فأكثر الفقراء الممتلئين بالهم والحزن، لم يكن همهم بسبب قلة رزقهم، وإنما همهم بسـبب الأغنيـاء الذين يرونهم، ولو أنهم كفوا عن النظـر إليهم، أو نظـروا إلى من هو دونهم، لعاشوا أغنياء، ولو في أثواب الفقراء، والعبرة بما نعيشه، لا بما يقوله الناس.

[1] رواه البخاري 11 / 276 ، ومسلم رقم (2963) ، والترمذي رقم (2515)

أنت تسمع الآن يا بني إلى حديثي، وتسمع معه أصـوات الرياح الشديدة التي تكاد تقلع سقف بيتنا، وتتـألم لـذلك.. فلا تتـألم لـه.. فمـا هـذه الريـاح بريـاح عـذاب، وإنمـا هي ريـاح رحمـة.. وأنت محتـاج إلى العبـور منهـا إلى معـارف كثـيرة، وحقائق سامية، وقيم مقدسة.. لن تصـل إليهـا من دون ذلـك العبور.

فالله تعالى ما خلق لنا الأشـياء، ولا نوّعهـا لنـا، لنسـكن إليها، وإنما لنرحل إلى الحقائق المختفية خلفهـا، ونفتش عن المعاني المرتبطة برموزها.

وأول تلك الأسرار معرفتك بقـدرة اللـه المطلقـة، وأنـه الخلاق البديع الذي لا يعجزه شيء.. ففي الوقت الذي تسـمع فيـه هـذه الأصـوات، وتفـزع لهـا، هنـاك من يسـتمتع بهبـوب النسـيم العليـل، وفي الحـدائق الغنـاء.. وهنـاك من يـرى العواصف الثلجيـة.. وهنـاك من يعيش بين الزوابـع الرمليـة.. وهناك من يعيش تحت فيح الحر الشـديد.. وهنـاك من يعيش تحت البرد الزمهرير.

وكل هذه الظواهر من إله واحـد بيـده القـدرة على كـل شيء.. وقد كـان في إمكانـه أن يجعـل الجميـع شـيئا واحـدا، لكن حكمته أبت إلا التنوع.. رحمة بعباده، ولطفا بهم.

فلـو أن اللـه مـا خلـق الكـون إلا بصـورة واحـدة لتـوهم الخلق عجزه عن غيرها.. ولذلك كـان التنـوع في الكـون دليلا على القدرة المطلقة.. وأن اللـه هـو الخلاق الـذي لديـه كـل التصاميم، وأن قدرته المطلقة تمتد إليها جميعـا، من غـير أن تفرق بين تصميم وتصميم.

وهذه المعرفة وحدها من يحميك من آثـار هـذا التنـوع.. فمن الخلق من راح يزدهي بـه ويفتخـر، ويتـوهم أن اللـه مـا اختـار لـه أفضـل البقـاع، وأكثرهـا لطفـا إلا لكونـه الأفضـل

والأكرم.. معاذ الله أن يفرق الله بين عباده.. ولو أنه تواضع، وعلم أن ذلك فضل من الله عليه، ليشكره، ويحمده، ويجعله وسيلة لرحمة من ابتلي بغير ما ابتلي به، لكان ذلك نافعا له..

لكن الكبر الذي جعل إبليس يقول لآدم عليه السلام: { أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [ص: 76] هو نفسه الذي جعل تلاميذه من المستكبرين، لا يفخرون بأعمالهم الصالحة التي عملوها، ولا بالقيم الطاهرة التي امتلأت بها نفوسهم، وإنما يفخرون بلطف الجو الذي يعيشون فيه، وحدائقه الغناء، ونسيمه العليل.

وقد نسوا أن كل ذلك ليس سوى عارية أعيرت لهم، وأنها مجرد دار يوشك أن يفارقوها، وأنهم بعد فراقهم لها، سيلقون ما يتناسب مع كبرهم وضلالهم وغرورهم، وأنهم في تلك الدار التي تنتظرهم، لن يجدوا ذلك النسيم الذي لم يحسنوا التعامل معه، وإنما يجدون ما وصفه الله تعالى بقوله: {وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ لاَّ بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ} [الواقعة:41 - 44]، وقال: {انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ} [المرسلات: 30 - 33]

وقال للذين نفروا من التكاليف التي كلفوا بها هربا من الحر الشديد: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} [التوبة: 81]، ثم رد عليهم ببيان مدى تهافت الخيار الذي اختاروه، فقال: {فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [التوبة: 82]

لذلك يا بني .. لا تنظر إلى هذه الأجواء القاسية التي تعيشها في هذه البلدة.. ولا إلى تلك الأجواء الجميلة في غيرها.. وانظر إلى الأجواء التي تنتظرك إن أنت أحسنت

التعامل مع البيئة التي وضعك الله فيها.. فإن أنت رضيت بما قدره الله لك، وحمدت الله عليه، ولم تعترض، ولم يصبك الغرور ولا الكبرياء.. حينها ستنقل إلى الأجواء الصالحة لك.. والتي تكون كلها ربيعا لجسدك وروحك.

لقد قال الله تعالى يصف الجنة وجوها المعتدل الذي لا يضطرب، ولا يتغير أبدا: {مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا} [الإنسان: 13]، أي أنهم لا يرون شمسا يتأذون بحرها، ولا زمهريرا يتأذون ببرده.

وهكذا وصف الله ظلال الجنة، والتي لا تعني وجود حرارة فيها، وإنما تعني جمالها، قال تعالى: {وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا} [النساء: 57]، وقال: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا} [الرعد: 35]

ولذلك فكر في ذلك العالم الجميل، فقد وضع الله لك من النماذج في الدنيا ما يدل عليه.. وما تراه ليس سوى نماذج لا يساوي معها جمال فضل الله في تلك الدار شيئا.. فالأزهار هنا تذبل.. لكنها هناك متفتحة دائما.. والثمار هنا تنقطع .. لكنها هناك دانية متدلية لا تنقطع أبدا.. والنسيم هنا قد يتحول إلى أعاصير.. أما هناك فسيبقى نسيما دائما أبدا.. وهنا قد تحتاج إلى المكيفات والمواقد.. أما هناك فلن تحتاج لشيء من ذلك؛ فكل شيء هيئ لك خصوصا لتنعم، ولا تبأس، وتفرح ولا تحزن.

لذلك لا تنزعج لهذه الأصوات.. واسمع منها تسبيحها وحمدها وتكبيرها لله.. وانظر فيها قدرته الباهرة التي تحرك ما تشاء، كيف تشاء.

واعلم يا بني أني لا أدعوك إلى أن تغالب طبعك الذي ينفر من الحر الشديد، ولا من البرد القارس.. ولا أدعوك لأن تسكن لذلك من غير أن تواجهه بما يصد أذاه عنك.. لكني أحذرك من أن تعترض على ربك الذي خلق ذلك، فهو ما خلقه ليعذبك، وإنما ليربيك، ولتتعلم من هذه الأجواء علوما

كثيرة لا يمكنك أن تتعلمها في المدارس، ولا من الأساتذة.

ولذلك كان من اختبار الله لعباده أن جعل بيته الحرام في تلك البلدة التي وصفها الله تعالى بقوله ــ على لسان إبراهيم عليه السلام ــ: { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} [إبراهيم: 37]

وقد ذكر الإمام علي سر ذلك، وعلاقته بالاختبار الإلهي، فقال: (ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه، إلى الآخرين من هذا العالم، بأحجار لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياما، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجرا، وأقل نتائق الدنيا مدرا، وأضيق بطون الأودية قطرا، بين جبال خشنة، ورمال دمثة، وعيون وشلة، وقرى منقطعة، لا يزكو بها خف، ولا حافر ولا ظلف، ثم أمر آدم عليه السلام وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحالهم، تهوي إليه ثمار الأفئدة من مفاوز قفار سحيقة، ومهاوي فجاج عميقة، وجزائر بحار منقطعة، حتى يهزوا مناكبهم ذللا يهللون لله حوله، ويرملون على أقدامهم شعثا غبرا له، قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم، وشوهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم ابتلاء عظيما، وامتحانا شديدا، واختبارا مبينا، وتمحيصا بليغا، جعله الله سببا لرحمته، ووصلة إلى جنته) [1]

ثم ذكر قدرة الله المطلقة على أن يجعل بيته في محل آخر، أكثر راحة، وأفضل جوا، لكنه لم يفعل، اختبارا لعباده، فقال: (ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام، ومشاعره العظام، بين جنات وأنهار، وسهل وقرار، جم الأشجار، داني الثمار، ملتف البنى، متصل القرى، بين برة سمراء، وروضة خضراء، وأرياف محدقة، وعراص مغدقة، ورياض ناضرة،

(1) نهج البلاغة: 2/147.

وطرق عامرة، لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء، ولو كان الأساس المحمول عليها، والأحجار المرفوع بها، بين زمردة خضراء، وياقوتة حمراء، ونور وضياء، لخفف ذلك مضارعة الشك في الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفى معتلج الريب من الناس، ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بألوان المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجا للتكبر من قلوبهم، وإسكانا للتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبوابا فتحا إلى فضله، وأسبابا ذللا لعفوه)[1]

ثم بين موضع العبرة من هذا، فقال: (فالله الله في عاجل البغي، وآجل وخامة الظلم، وسوء عاقبة الكبر، فإنها مصيدة إبليس العظمى، ومكيدته الكبرى، التي تساور قلوب الرجال، مساورة السموم القاتلة، فما تكدي أبدا، ولا تشوي أحدا، لا عالما لعلمه، ولا مقلا في طمره، وعن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصلوات والزكوات، ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات، تسكينا لأطرافهم، وتخشيعا لأبصارهم، وتذليلا لنفوسهم، وتخفيضا لقلوبهم، وإذهابا للخيلاء عنهم، لما في ذلك من تعفير عتاق الوجوه، بالتراب تواضعا، والتصاق كرائم الجوارح بالأرض تصاغرا، ولحوق البطون بالمتون من الصيام تذللا، مع ما في الزكاة من صرف ثمرات الأرض، وغير ذلك إلى أهل المسكنة والفقر)[2]

فاستفد يا بني من هذه الحكمة، واعبر منها إلى غيرها.. فالله ما خلقك في هذه الدنيا لتسكن إليها، وإنما لتعبر منها .. أما الجزاء فهو بقدر عبورك، وحفظك لدروسك.. وهو بقدر المكارم التي تملأ بها نفسك.. والمواجيد التي تملأ بها قلبك.. والحقائق التي تعمر بها عقلك وروحك.

1() نهج البلاغة: 2/148.

2() نهج البلاغة: 2/149.

أعلم يا بني أنك تـألمت كثـيرا من ذلـك السـير الطويـل الذي سرناه حتى نصل إلى ذلـك المـدير طلبـا لتلـك الحاجـة التي حالت بيننا وبينها الحوائل.. وأعلم أنك تألمت أكثر عندما رفض المدير الإذن لنا بالدخول عليـه، لتوضـيح طلبنـا، وبيـان مدى حاجتنا.

لكـني أنصـحك بـألا تتـألم.. وأن تعبُـر ممـا حصـل لـك، وتستفيد منه فنون الحكمة.. فالله مـا وضـع لنـا العوائـق في حياتنا الدنيا ليعذبنا، وإنما خلقها لنا ليربينا ويعلمنا.

وأول تلك العبر أن تعلم عظيم فضـل اللـه علينـا بإتاحـة الفرص لنا لنحدثه مـتى نشـاء، وكيـف نشـاء، وفي أي حاجـة نشــاء من غــير أن تحــول بيننــا وبينــه الحجب، ولا أن نتعب أقدامنا بالحركة، ولا أنفسنا بالهوان والذلة.

واعلم ـ يا بني ـ أن ذلك المدير الـذي لم تتح لنـا فرصـة اللقاء به بعد ذلك الجهد الشديد، ليس سوى ذرة في مملكــة الله الواسعة، وأنه لا يقدم ولا يؤخر لولا إذن الله له.. فلـذلك انظر ـ من خلال تلك الحجب ـ إلى فضل الله عليـك بطرقـك لبابه، ولجوئك إليه، فهو ما حرمـك من خلقـك إلا لتضـطر لـه وحده، وسترى عند ذلك عظيم فضله عليك.

وثـاني تلـك العـبر أن تتعلم فنـون رفـع الحجب.. وأنـك تحتاج فيها إلى بذل الجهد، فما وصل إلى غرضـه كسـول، ولا ارتفع إلى تلك الآفاق السامية صـاحب همـة دنيـة، وقـد قـال اللـه تعـالى يـبين الطريـق لرفـع الحجب بينـه وبين خلقـه: {وَالَّذِينَ جَاهَـــدُوا فِينَـــا لَنَهْـــدِيَنَّهُمْ سُـــبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَـــعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: 69]

فإياك أن تركن للكسل، أو تتوهم أن المطالب العظيمـة يمكنك أن تنالها بـالتعب البسـيط.. فبقـدر همم الأرواح تتعب الأجساد.

واعلم يا بني أن الذي خلـق هـذه الحجب في الـدنيا قـد وضـع بينــه وبين عزتــه من الحجب مــا يحمي جنابهــا من أن يكون مثابة لكل قاصد، أو شرعة لكل وارد، فالله قد يعطيـك الأشياء التي تريدها.. أما معرفته والتواصل معه، فيحتاج همة أعظم، ولذلك أُسدلت الحجب بين الخلق وبينها حتى لا يصـل إلا الصادقون.

وقد روي أن رجلا من العبـاد قـال مخاطبـا ربـه: (إلهي! إلى كم أعصيك، ولا تعاقبني؟!)، فـأوحى اللّـه إلى نـبي ذلـك الزمان، وطلب منـه أن يقـول لـه: (إلى كم أعاقبـك و أنت لا تـدري؟!.. ألم أحجبـك عن لطـائف أنسـي!.. ألم أخـرج عن قلبك حلاوة مناجاتي!)

هل علمت يا بـني الحجب الحقيقيـة.. فهي ليسـت تلـك الـتي حـالت بيننـا وبين ذلـك الرجـل الـذي يوشـك أن يـترك منصبه، ويترك الدنيا جميعا.. ولكن الحجب الحقيقية هي التي تحول بينـك وبين ربـك.. فـذلك هـو الحجـاب الأعظم الـذي لا عقوبة أشد منه.. فما وجد من فقد الله.. وما فقد من وجده.

واعلم يا بـني أن تلـك الحجب الحائلـة بين اللـه وخلقـه، ليست من الله، وإنما من الخلق، فاللـه أعظم من أن يحجبـه شــيء.. ولكن الخلــق هم الــذين يســدلون بينهم وبين ربهم الحجب.. ألم تسمع قوله تعالى، وهو يحكي ما يحصـل للـذين آثـــــروا الحجـــــاب عن اللـــــه: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين: 15]، وبين سبب ذلك، وهو وضعهم للحجب في الدنيا، وإيثارهم لهـا، فقـد قـال تعـالى قبـل تلـك الآية الكريمة: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَـا كَـانُوا يَكْسِـبُونَ} [المطففين: 14]، ليـبين أن السـبب في ذلـك الحجـاب ليس من الله، وإنما من عند أنفسهم، بعد أن ملأوا قلــوبهم بــأنواع الشبه التي تحول بينهم وبين ربهم.

ولم يكن ذلك هـو حجـابهم الوحيـد، بـل إنـه يحـال بينهم وبين الكلام مع الله، أو بثهم شكاواهم إليه.. فقد قـال تعـالى يصف حال الجاحدين الظالمين الذين وضعوا بينهم وبين ربهم

الحجب:{اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ} [المؤمنون: 108 - 111]

فاحذر يا بني من هذه الحجب .. فهي الحجب الحقيقية، وما عداها أوهام وسراب لا قيمة له.. فما قيمة أن يحجبنا ذلك المدير إن أذن لنا الله؟.. وما قيمة أن يأذن لنا إن حجبنا الله؟

لقد دخل بعض الصالحين مدينة، فتبعه خلق كثير، فلما نظر إليهم وإلى ازدحامهم عليه، قال: (اللهم إني أعوذ بك أن تحجبني عنك بهم، و أعوذ بك أن تحجبهم عنك بي)

هكذا يا بني فليكن حالك.. فاحذر من أن تسكن لشيء فتحجب به عن ربك، فيكون وبالا عليك، فلا خير في راحة تكون معها القطيعة، ولا خير في دنيا تحرم من الآخرة، ولا خير في مال أو جاه تتبعه خسارة الأبد.

وقد قال بعض الصالحين: (لو أن رجلا دخل إلى بستان فيه من جميع ما خلق الله تعالى من الأشجار، عليها من جميع ما خلق الله تعالى من الأطيار، فخاطبه كل طائر منها بلغته، وقال: السلام عليك يا ولي الله، فسكنت نفسه إلى ذلك كان في يدها أسيرا)

فلذلك افرح يا بني بفضل الله عليك أن حجب عنك بعض المصالح، فهو ما حجبها عنك ليعذبك، وإنما حجبها ليرفعك، ويربيك، ويلقنك فنون الحكمة.

سياسة

سألتني ـ بني ـ عن السياسة.. فاسمعني جيدا.. فليست السياسة التي علمتك إياها في ذلك الزمن البعيـد هي نفسـها التي يتحدث عنها الناس اليوم.

في القـديم.. في ذلـك الـزمن الغـابر.. ذكـرت لـك أن السياسة هي أن يصير عقلك ملكا على هواك، وعفافك ملكـا على شهوتك، وعدلك ملكا على جورك، وحقائقـك ملكـا على دعاواك.

وفي ذلك الزمن ذكرت لك أن السياسي الناجح هـو من لجم نزواتــه ونزغاتــه.. وســيطر على شــهواته وأهوائــه.. واستطاع أن يحبس في قماقم سليمان كل عفـاريت الباطـل التي تنتجها كل حين نفسه الأمارة.

وذكرت لك أنه لا يسوس الناس من لا يسـوس نفسـه.. ولا يحكم الناس من لم يتحكم في هـواه.. ولا يقـود أي رعيـة ما لم تنقد له رعايا دولته التي تسكن ذاته.

هذا ما ذكرته لك.. وهذا ما سميته لك سياسة.

لكن السياسة اليوم شيء مختلف تماما.. فاحذر أن تقع في حبائلها، وتستبدل بها ما علمتك إياه أول مرة.

في هذه الأيام يشتري الساسة ألبسة كثيرة تتلون بتلون الأيام، وتتغير بتغـير الفصـول.. ويركّبـون معهـا في أفـواههم ألسنة كثيرة تتقن المدح والهجاء.. وتتقن معها قلب الحقـائق والتلاعب بها..

ويستبدل الساسة في هذه الأيام قلوبهم التي خلقها الله لهم بقلـوب جديـدة لا تعـرف لينـا ولا رحمـة ولا شـفقة.. قـد تتصنعها، ولكنها لا تتقن التعامل معها.

وفي هذه الأيام صنع الناس صناديق كثيرة.. كثـيرة جـدا

يملؤونها كل حين بأسماء قديمة أو جديدة لهؤلاء الذين ذكرتهم لك..

وكل الناس يتطلعون إلى تلك الصناديق بلهفة وشوق، ولكنهم سرعان ما يدركون الحقيقة ومدى التلاعب بهم.. لكنهم يأبون إلا إعادة تجربة ما جربوه، والوقوع في نفس المصايد التي وقعوا فيها.

وأنا لا ألوم من وقع في شباك هذه الصناديق ممن {نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ} [الحشر: 19]، فذلك هو شأنهم ودأبهم وديدنهم.. ولكني ألوم أولئك الذين تصوروا أنهم عرفوا الله، وعرفوا السبيل إليه..

لقد تعجبت كيف يقعون في تلك الشباك، وكيف ينبذون ذلك الهدي الجميل الذي ورثوه من الحكماء، بل من أحكم الحكماء ليعرضوا به دين الله، ويملأوا به الحياة بجميع جوانبها.. لكنهم بدل أن يستنوا بسنة الرسل عليهم السلام في ذلك، راحوا يستنون بسنة من يسمونهم [سياسيين]، فيدخلون معهم في تلك الصناديق، ويسقطون معهم في مستنقعاتها.

أنا لا أريد منهم، ولا منك، أن تتركوا السياسة.. فالسياسة دين.. والدين سياسة.. ومعاذ الله أن نعزل الشريعة الممتلئة بالعدل عن حكم كل جوانب الحياة.. ولا أن نعزل الصالحين عن قيادتها.. ولكن الطريق إلى ذلك مختلفة.

فليس دين الله مثل تلك البضاعة التي يعرضها المرجفون والمتلاعبون والمحتالون حتى توضع معها في محل واحد.. وإنما هي بضاعة مقدسة، لا يمكن تمريرها عبر تلك الصناديق، وإنما تُمرر إلى عقول الناس وقلوبهم {بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} [النحل: 125] والجدال بالتي هي أحسن.

فإذا ما اقتنعت بها عقولهم، وتأثرت لها قلوبهم، تقبلتها بعد ذلك ذواتهم، وصاروا هم المطالبين بها، لا يرتضون

غيرهــا.. وحينهــا يمكن أن تُطبــق عليهم بقيمهــا الرفيعــة، وأحكامها العظيمة، وشـرائعها السـامية، لا يـدخلون في ذلـك أهــواءهم، ولا آراءهم، ولا يلغــون أي شــريعة بحجــة عــدم تناسبها معهم، وهل يمكن أن يأمر الله بشيء لا يتناسـب مـع خلقه؟

هــذا هــو المنهج الوحيــد الــذي يمكن أن تمــارس بــه السياسة لتبلغ دين الله، وتحققه على الأرض.. أمـا الأسـاليب الأخرى، فقـد رأيتهـا يـا بـني، ورأيت كيـف وقـع أصـحابها في الصراع، وكيف راحـوا يتنـازلون ــ لإرضـاء الأهـواء ــ عن كـل شريعة، حتى يرضوا من يريدون أصواتهم.

ولم يكتفوا بكل ذلك التشويه، وإنمـا راح بعضـهم يحمـل السلاح ليحـول دين اللـه، وشـريعته السـمحة إلى دين عنـف وصراع وإرهاب..

وكــل هــؤلاء يشــوهون الــدين، وهم أبعــد النــاس عن تبليغــه .. فسياســة الأمم تبــدأ بسياســة النفــوس وسياســة المجتمعات.. وبعدها يمكن للصالحين أن يقيموا دولتهم الــتي لا تحكمها إلا المبادئ السامية، والشريعة الحكيمة.

ولا أعــني بهــذا يــا بــني أن تتوقــف عن الحــديث في السياســة، فمعــاذ اللــه أن أنهــاك عن الاهتمــام بــأمور المسلمين.. أو الوقوف إلى جانب المستضعفين.

فالبشــر الآن.. مثــل كــل العصــور.. منقســمون إلى قسمين: المستكبرين والمستضـعفين.. ونحن مطـالبون بـأن نقف في وجه المستكبرين.. وأن نقـف في نفس الـوقت مـع المستضـعفين المظلــومين.. من غــير تفريــق في ذلــك بين أعراقهم ولغاتهم وأديانهم ومذاهبهم.

لقد أمرنـا اللـه بـذلك.. بـل أمرنـا بنصـرتهم بكـل أنـواع النصرة حتى العسكرية منها، فقال: {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْـعَفِينَ مِنَ الرِّجَـالِ وَالنِّسَـاءِ وَالْوِلْـدَانِ الَّذِينَ يَقُولُـونَ رَبَّنَـا أَخْرِجْنَـا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَـةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَـا

وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا} [النساء: 75]

فالآية الكريمة تجعل المؤمن جنديا في نصرة المستضعفين المظلومين في أي أرض، وفي مواجهة أي عدو.. بغض النظر عن دينه وعرقه وبلده.

وكما ينصر المؤمن المستضعفين بتلك الطرق التي ذكرتها الآية الكريمة ينصرهم بغيرها أيضا.. فكل سبيل أو وسيلة يمكنك بها أن تقف في وجه الاستكبار والظلم، فمارسها.. ولا تسمع لأولئك الذين ينهونك عن التدخل في مثل هذه السياسة.. فمن لم يقف مع المظلوم وقف مع الظالم لا محالة.. ومن سكت عن الظلم، فهو شيطان أخرس.

وأنبهك يا بني إلى أن أخطر ما في السياسة اليوم ذلك التلاعب بالحقائق، عبر التلاعب بالعواطف.. حيث ترى رؤوس الاستكبار وأئمة الكفر ينشرون الخراب فيمن يخالفونهم بحجة تحرير الشعوب، مع أنهم لا يقومون سوى بإثارة الفتن بينها، واستعمال من باعوا دينهم وذممهم وأخلاقهم لذلك.. فاحذر أن تقع ضحية مكرهم.

وإن شئت أن تركب سفينة النجاة في ذلك.. أو تحدد بوصلة الحق وأهله.. فابحث عن رؤوس الاستكبار والظلم، فحيثما وجدتهم فخالفهم.. وحيث ساروا لا تسر.. وفي أي جبهة قاتلوا.. فقاتل خلاف قتالهم.

هذه هي السياسة يا بني.. فاحذر أن تتركها، أو تقع في حبائلها، أو تسمع لمن يدعوك إلى اعتزالها.. فأنت ممتحن في كل موقف من مواقفك.. والخطأ فيها كبيرة.. والخطيئة فيها جريمة.

طلبت مـني ــ بـني ــ أن أحـدثك عن الاقتصـاد بعـد أن حدثتك عن السياسة، وأخبرتـني أنهمـا أخـوان شـقيقان، وأن علامة نجاح الساسـة، واسـتمرارهم في الحكم، نجـاحهم في الاقتصاد، وقـد حـاولت أن تـبرر لي ذلـك بمـا قرأتـه في علم الاقتصاد، وارتباطه بعلوم كثيرة.

وأنا لا أجادلك في ذلك، ولا أناقشك فيه؛ فأنـا أعلم أنـك درسته، بل كدت تتخصـص فيـه.. وأعلم أن بعضـه ممـا يكـاد يعتـبر من العلـوم المحضـة لارتباطـه بالحسـاب والرياضـيات وغيرها.

ولكـني مـع ذلـك سـأحدثك عن عـالم الحكمـة، وعلاقتـه بعالم الاقتصاد.. فالحكمة لا تنظـر إلى الأشـياء.. وإنمـا تنظـر إلى حقائقهـا وأرواحهـا والقيم المرتبطـة بهـا.. وتنظـر إلى المصير الذي تصير إليه، ولا تحجب بالواقع الذي تعيشه.

لــذلك تــدعوك الحكمــة إلى عــدم الاكتفــاء بــاحترام السياسي الذي عرف كيف يدير اقتصاد بلده، قبـل أن تسـأله عن مناهجه التي استعملها في ذلـك، وهـل هي متوافقـة مـع الأخلاق والقيم الرفيعة وكرامة الإنسان، أم أنهـا تخالفهـا في ذلك؟

فقـد رأيت من الساسـة من راح يشـجع السـياحة، لتُـدر على بلده الثروات الضخمة، وقد أدرّت بالفعل على بلده كـل عملات العـالم.. ولكنهـا أدرت معهـا كـل فجورهـا وفسـوقها وانحرافها.. حيث حول من أرض بلـده إلى بلـد لا تختلـف عن سـدوم وعموريـة .. وتلـك الأقـوام الـتي شـنع عليهـا الأنبيـاء بسبب الرذائل التي أتاحوها، والمنكرات التي أشاعوها.

نعم .. لقد نجح في إدخـال العملـة الـتي يسـميها صـعبة إلى بلده، وأدخل معها الكثير من الرذائل الـتي يصـعب عليـه أن ينزعها.. ولذلك كان جوع قومه قبلهـا أحسـن من شـبعهم

الذي أدخله عليهم، وأدخل معه كل المنكرات والرذائل.

ورأيت مثلـه من راح يشـجع الشـركات والمصـانع على إنتاج كل شيء، من غير نظر في جدوى ذلك على أهـل بلـده أو على غيرهم.. فراح الكثير منها ينتج السموم الـتي يسـميها أغذية أو أدوية، لا يراعي في ذلك إلا ما يدخل جيبه من ثروة، ومـا يـدخل بلـده من رفـاه.. وأي قيمـة لرفـاه وثـروة تقتـل الصـحة، وتـنزل أنـواع البلاء.. وأي قيمـة لجيـوب ممتلئـة مـع صحة معتلة، وجسد متهالك؟

ورأيت مثله من يـتيح للقنـوات والصـحف أن تنشـر كـل شـيء.. وتبث كـل الأكـاذيب والرذائـل في سـبيل أن ينشـط الاقتصاد، ولو على حساب الأخلاق والقيم الرفيعة.. فأنشـئت الأفلام والمسلسلات والأشرطة والـبرامج الـتي لا هم لهـا إلا تحطيم الإنسـان، وتحويلـه إلى بهيمـة لا يهمهـا من الحيـاة إلا تلك المتع الدنية التي تتمتع بها.

ورأيت قبلهم جميعا أولئـك المسـتكبرين الـذين أرسـلوا جيوشـهم للمستضـعفين ليسـرقوا ثـرواتهم، ويسـتولوا على خيراتهم، في سبيل أن ترضى عنهم شعوبهم، بسبب الأمـوال التي يدخلونها لهم.

إن هؤلاء جميعا يا بني لصوص وقطاع طرق ومجرمـون، وإن تصور الخلق أنهم قد نجحوا في عالم الاقتصاد، أو حولـوا بلادهم من التخلف إلى التقدم، ومن الفاقة إلى الرفاه.. فأي قيمة للمال الحـرام.. أي بركـة لتلـك الأرزاق الـتي يهـان بهـا القيم والأخلاق والدين.

لذلك لا تنظر يـا بـني إلى الاقتصـاد بتلـك العين العـوراء التي تقتصر على الحسابات، فتقع فيما وقع فيه قارون عندما راح يعـد أموالـه وكنـوزه، ويفتخـر بهـا، وينسـى أن يحاسـب نفسه عليها.

ولذلك علمنا سيد الحكماء رسول الله ﷺ أن نسـأل عن القيم قبل أن نسأل عن الأموال، وأن نبحث عن الأخلاق قبـل

أن نبحث عن الرفاه.. فليس الشأن أن نغتني بالمال، وإنما الشأن أن نغتني بالأخلاق.. لأنها هي التي تصحبنا إلى ربنا.. أما الأموال، فسنحاسب عليها من غير أن نأخذها معنا.

لقد قال رسول الله ﷺ يبين أهم المسائل التي يسأل عنها الإنسان في ذلك العالم الذي يميز فيه الطيب من الخبيث: (ما تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه)

وحذر من أن يكون هدف الإنسان تنمية ثروته، ولو على حساب أخلاقه، فقال: (الدنيا خضرة حلوة، من اكتسب فيها مالا من حله وأنفقه في حقه أثابه الله عليه وأورده جنته، ومن اكتسب فيها مالا من غير حله وأنفقه في غير حقه أورده الله دار الهوان، ورب متخوض في مال الله ورسوله له النار يوم القيامة، يقول الله تعالى: {كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً} (الاسراء: 97)

وأخبر أن النار تنتظر كل اللحوم التي نبتت من السحت والمال الحرام الذي حققه الرفاه الاقتصادي الممتلئ بالشبهات، فقال ﷺ: (لا يدخل الجنة لحم ودم نبتا من سحت والنار أولى به)، وقال: (لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به)

وأخبر أن من رضي بالاستفادة من الحرام، ولو لم يساهم فيه، كان شريكا للمجرمين في جريمتهم، قال ﷺ: (من اشترى سرقة وهو يعلم أنها سرقة فقد اشترك في عارها وإثمها)

ولذلك، فإن كل تلك الشعوب التي تطالب حكامها بالرفاه، ولو على حساب الأخلاق، شريكة لها في كل جريمة ترتكبها.. ولو بسكوتها عن الباطل، أو عدم وقوفها مع أهل الحق.

فقد رأيت من السياسيين من يشترون صمتهم عن

الجرائم التي يرتكبها معسكر الطغيان بسبب خوفهم من العقوبات الاقتصادية، أو خوفهم على بعض مصالحهم، وهم بذلك شركاء في الجريمة، وهم بذلك آكلون للمال الحرام، والشعوب التي ترضى عنهم بسبب ذلك لا تختلف عنهم فيه.

لذلك يا بني .. لا تقع فيما يقع فيه أولئك الذين يعدون الأموال دون أن يبحثوا في مصادرها.. فإن تلك الأموال ستنقلب وبالا عليهم..

وإياك أن تفعل ما يفعله أولئك الذين فصلوا بين الأخلاق والاقتصاد والسياسة، فتحول الإنسان عندهم إلى شيطان رجيم.. لا هم له إلا ملء بطنه من الأكل الحرام الذي يرتد وبالا عليه في الدنيا والآخرة.

لعلك يا بني ترى تلك الوحشة التي تكسو وجوههم، وذلك الضنك الذي تمتلئ به معيشتهم، مع أن لهم كل ما يقتضيه الترف والرفاه.. وسبب ذلك غفلتهم عن تلك الأموال الحرام التي اختلطت بطعامهم وشرابهم ولباسهم ومسكنهم، فحولته إلى تلك الحال.. فبركة الله أعظم من أن تحل في محل ممتلئ بالحرام.

وكيف تحل البركة بيوتهم أو نفوسهم، وقد وضعوا الحجب بينهم وبين ربهم بتناولهم للمال الحرام، وقد ذكر رسول الله ﷺ الرّجل (يطيل السّفر أشعث أغبر، يمدّ يديه إلى السّماء: يا ربّ! يا ربّ! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنّى يستجاب لذلك؟)[1]

وقال ﷺ: (من اشترى ثوبا بعشرة دراهم في ثمنه درهم حرام، لم يقبل الله له صلاة ما كان عليه) [2]

وعندما سأله بعض الصحابة أن يدعو الله بأن يجعله

---

[1] مسلم: (1015)

[2] أحمد: 2/ 98.

مستجاب الدعوة، قال له: (أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده، إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل الله منه عمل أربعين يوما، وأيما عبد نبت لحمه من سحت، فالنار أولى به) [1]

ولا يغرنك يا بني ما يفعله بعض أولئك بتلك الأموال من أعمال قد تبدو لك صالحة، فإن الله أكرم من أن يقبلها.. فالله طيب لا يقبل إلا طيبا، وقد قال رسول الله ﷺ: (إذا خرج الرجل حاجا بنفقة طيبة، ووضع رجله في الغرز، فنادى: لبيك اللهم لبيك، ناداه مناد من السماء: لبيك وسعديك وزادك حلال، وراحلتك حلال، وحجك مبرور غير مأزور، وإذا خرج الرجل بالنفقة الخبيثة، فوضع رجله في الغرز، فنادى لبيك اللهم لبيك، ناداه مناد من السماء: لا لبيك ولا سعديك، زادك حرام، ونفقتك حرام، وحجك غير مبرور) [2]

وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: (إنه لا دين لمن لا أمانة له ولا صلاة ولا زكاة، إنه من أصاب مالا من حرام فلبس جلبابا ـ يعني قميصا ـ لم تقبل صلاته حتى ينحي ذلك الجلباب عنه؛ إن الله تبارك وتعالى أكرم وأجل من أن يقبل عمل رجل أو صلاته وعليه جلباب من حرام) [3]

وقال ﷺ : (من اشترى ثوبا بعشرة دراهم وفيه درهم من حرام لم يقبل الله عز وجل له صلاة ما دام عليه) [4]

وقال ﷺ : (من جمع مالا حراما ثم تصدق به لم يكن له

---

[1] () المعجم الأوسط (6495)

[2] () المعجم الأوسط (5228)

[3] () البزار (3/61، رقم 819)

[4] () رواه عبد بن حميد في المنتخب (849)، والبيهقي في الشعب (6114)

فيه أجر، وكان إصره عليه)[5]

تعلم يا بني من هذه الأحاديث وغيرها من النصوص المقدسة فنون الاقتصاد الرباني الذي يحمي الإنسان من آثار نفسه الأمارة بالسوء، والتي لا تريد منه إلا أن يملأ خزائنه، ولو على حساب الفقراء والمستضعفين والمحرومين؛ فيأكل الربا، ويغش ويحتكر، ويغبن، ويبيع الوهم والرذيلة والفحشاء.. في سبيل أن تزيد ثروته، وتزيد معها ذنوبه وجرائمه وأوزاره.

---

[5] () ابن حبان (8/153، رقم 3367)

فنون

سألتني ـ بني ــ عن الفنـون، وأخبرتـني أنهـا ركن ركين من الحياة، وأن أكثر الخلق يتوجهون بأكثر أوقاتهم إليها، فهم بين فلم يشاهدونه، أو مسلسـل يتابعونـه، أو أغـان ينتشـون، ويطربون لها.. أو صور ومشاهد يمتعون أنظارهم بها.

وأخبرتــني أنهم لا يكتفــون بتلــك المشــاهدات، وإنمــا يضمون إليها متابعة حياة الفنانين بأصـنافهم المختلفـة، حيث حولوهم إلى أبطال يبحثون عن أسرار حياتهم، ويقتــدون بهم فيها.

وأنــا أعلم الكثــير ممــا ذكرتــه لي، وأتأســف لــه أســفا شــديدا.. فمــا ذكرتــه يــذكرني بقولــه ﷺ: (إذا ســاد القبيلــة فاســقهم، وكـان زعيم القـوم أرذلهم، وأكـرم الرجـل مخافـة شره، وظهرت القينـات والمعـازف، وشـربت الخمـور، ولعن آخر هذه الأمة أولها؛ فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمـراء، وزلزلـة وخسفا ومسخا وقـذفا وآيـات تتـابع كنظـام لآل قطـع سـلكه فتتابع) [1]

فهذا الحديث يصف بدقـة الانتكاسـة الـتي وصـلت إليهـا البشرية عنـدما أسـندت أمورهـا لغـير أهلهـا.. فكمـا تحـولت السياسة إلى وسيلة للخداع والانتهازية.. وتحول الاقتصاد إلى وسيلة لابتزاز الأموال.. فقد تحول ما يسمونه فنونــا إلى أداة لنشــر الرذيلــة والفــواحش والمنكــرات وتحقيــق الانتكاســة الإنسانية الكبرى.

وكـل ذلـك سلسـلة واحـدة تبـدأ بالساسـة الانتهـازيين، والاقتصـاديين الجشـعين، الـذين علمـوا أنهم لن يصـلوا إلى أغراضهم من تحويل الشـعوب إلى أداة طيعـة لهم، إلا بنشـر تلك القيم التي تولت الفنون نشـرها، والـدعوة لهـا، وصـرف القلوب إليها.

[1] () الترمذي (2211)

لقد أشار القرآن الكريم إلى استعمال المستبدين لهـذه الوسائل، فقال: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ } [الزخرف: 54]، فالآية الكريمة تشير إلا أنه لا ينفع المستبدين شيء مثلما تنفعهم خفة عقول شعوبهم، والتي تعيش الأوهام التي تسربها لهم تلك التي يسمونها فنونا.

لا تحسب أني ـ يا بني ـ ضد الفنون وجمالها.. فالفن نعمة من نعم الله العظمى على عباده، لأنه وسيلة من وسائل البيان التي نعرف بها الحقائق، وننشرها، ونتبين بها القيم، ونحققها وندعو إليها.

لكن البشر أو أكثرهم، بدل أن يستعملوا هذا البيان الذي أتاحه الله لهم في نشر قيم الفضيلة، راحوا ينشرون قيم الرذيلة.. وراح الخلق يتبعهم فيها، ويتأثر بهم بسببها.

ومثلهم في ذلك مثل تلك الأسلحة التي أمر الله بالإعداد لها، والاهتمام بها، لتحصين جبهة المستضعفين، فتحولت في أيدي المستكبرين إلى وسيلة للقهر والظلم والاستبداد والاستعمار.

وهكذا كان الفن نوعا من أنواع الاستعمار.. لأنه يستعمر حقيقة الإنسان، ويدمر ملكاتها، والقيم التي فطرها الله عليها.

ألا ترى المشاهدين الذي يزعمون لأنفسهم الالتزام يتجنبون في حياتهم كل ما يسيء إليها.. لكنهم عند مشاهدتهم لتلك الأفلام والمسلسلات، يتخلون عن كل القيم التي يؤمنون بها.. ويصبح كل شيء عندهم بسيطا يسيرا عاديا.. فالخمر تشرب أمامهم، ولا يتغيرون لها.. والمنكرات تقع أمام أعينهم، ولا تتحرك قلوبهم لإنكارها.. بل قد تعجبهم.. وقد يشجعون البطل الذي يمارسها.

إن ذلك ـ يا بني ـ هو مقدمة لإخراج الحرج من المعاصي من القلوب، وتحويلها إلى أشياء عادية.. فالشيطان

لا يُدخل الإنسان عالمه دخـولا مفاجئـا، وإنمـا يدخلـه بتـدرج.. فيبدأ معه مشوار الانتكاسة بأمثال تلك المشاهد.. ثم لا يـزال يضيف لهـا أمثالهـا إلى أن يصـبح المعـروف منكـرا، والمنكـر معروفا.

لـذلك كـان الـورع يـا بـني في تـرك كـل تلـك الفنـون الممتلئة بـالمجون.. والبحث عن الفنـون الملتزمـة المراعيـة للآداب والأخلاق والقيم الرفيعــة.. وهي لا محالــة موجــودة.. فيستحيل على الشر أن يتفرد وحده..

وإيـاك يـا بـني أن تقـع فريسـة فيمـا يقـع فيـه أولئـك المطبلون للرذيلة، حين يكرمون كل فنـان أو أديب لا يـراعي الأخلاق والآداب في أعمالـه، فيشـجعونه، ويعطونـه الجـوائز الضخمة، لتنتشر أفكاره بتلـك الدعايـة الـتي تنطلي على من يريد الشيطان أن يغويهم.

فهم لا يفعلون ذلك حبا فيه، ولا تعظيما له، وإنما ليسنوا من خلالــه كــل الســنن الســيئة.. فلا تســمع لهم.. ولا تتبــع أهــواءهم.. ولا تــدعهم يقــررون لــك الحقــائق.. ولا تــدعهم يميزون لك بين الجيد والرديء.. فهم ليسوا أهلا لذلك.. فمن يتبع هواه يستحيل عليه أن يميز بين الحق والباطل، والجميل والرديء.

وقد ذكر القرآن الكـريم نمـاذج عن أولئـك الـذين كـانوا يسخرون من القرآن الكريم، وقصصـه، ويـدعون إلى قصـص أكثر إثارة وغرابة، فقـال: { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَـا قَـالُوا قَـدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَـا مِثْـلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلَّا أَسَـاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الأنفال: 31]

أنا لا أدعي يا بني أنهم يتعمدون ذلك.. أو أنهم لا يعبرون عن أذواقهم فيهـا.. فهم يعـبرون عنهـا.. ولكن أذواقهم فيهـا أذواق منتكســة، فمن أدمن على الباطــل صــعب عليــه أن يشرب من نبع الحقيقة، وقد قال تعالى عن أمثالهم من أهـل الجاهلية الأولى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ

عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ بِغَيْـرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِـذَهَا هُـزُوًا أولَئِكَ لَهُمْ عَـذَابٌ مُهِينٌ (6) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آَيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْـمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [لقمان: 6، 7]

فاستمع نصيحتي يا بني .. وإياك أن تقع في حبائل الفن الماجن.. فما يبعدك عن حقيقتك لا خـير فيـه.. ومـا يصـرفك عن ربك لن يملأ حياتك إلا بالكدر.

فالزم الورع، وابحث عن الفنون الجميلـة الـتي حسـنت في شكلها وأدائها، كما حسنت في معانيها وقيمهـا.. فلا خـير في الشر الذي تزين ظـاهره بالجمـال، ولا في المنكـر الـذي حسنت صورته للعيان.

أخبرتـني ــ بـني ــ عن السـياحة، وأنهـا أصـبحت من ضرورات الحيـاة المعاصـرة، وأن أكـثر النـاس اسـتووا فيهـا، سواء كانوا من البسطاء المتواضـعين، أو الأغنيـاء المـترفين، وأنهم ـ جميعا، بسبب ما أتاحه التطور الكبير في مجال النقل ـ يتنقلون إلى مواطن كثيرة في العالم، ليقضوا أكـثر أوقـات حياتهم متعة.

وأنا لا أريد أن أحرم عليك ولا عليهم هذا الـترف الجديـد الذي أضافوه إلى حياتهم، وكيف أفعل ذلك، وقـد أمرنـا اللـه تعـالى بالسـير في الأرض، فقـال: {قُـلْ سِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِـرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [العنكبوت: 20]

وبين أن من مقتضـيات الأمن الـتي وفرهـا لعبـاده أن يحتـك بعضـهم ببعض، ويسـير بعضـهم إلى بعض، فقـال: {وَجَعَلْنَـا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُـرَى الَّتِي بَارَكْنَـا فِيهَـا قُـرًى ظَـاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّـيْرَ سِـيرُوا فِيهَـا لَيَـالِيَ وَأَيَّامًـا آمِنِينَ } [سـبأ: 18]

وكيف أحرمها، ولولاها لم يخرج سلمان من مجوسـيته.. فقد كان سيره في الأرض، وحركته فيهـا سـبيله إلى الهدايـة بعد الضلالة؟

وكيف أحرمها، ولولاها لم يهتد أولئك الأنصار إلى رسول الله ﷺ، ويستنيروا بنور الإيمان، ثم يجلبونه إلى بلادهم؟

وكيف أحرمها، وقد دعـا رسـول اللـه ﷺ إلى السـير في الأرض، والبحث عن مواضـع العلم والهدايـة والاسـتنارة بهـا، والاستفادة منها، فقال: (من سلك طريقـا يلتمس فيـه علمـا، سهل الله له به طريقا إلى الجنة) [1]

---

[1] مسلم (2699) ، وأبو داود (1455) و (4946)

لكني مع ذلك لا أستطيع أن أطبق كل هذا على ما يفعله قومك من السياحة، ذلك أن قصد أكثرهم ليس سوى اللهو المجرد، وهو ما قد يصب في الترف المحض، ذلك أن تلك الأموال الكثيرة التي يصرفونها في سبيل ما يمكنهم الاستغناء عنه بالكثير من البدائل ترف غير مشروع..

فمن كان قصده من السياحة الاستجمام والراحة، فيمكنه الذهاب إلى أي شاطئ أو جبل في أي محل قريب منه، ولا حاجة له لصرف الأموال الكثيرة، والتنقل للمسافات الطويلة في سبيل ذلك.. ولو فعل ذلك كان مترفا، بل متلفا لماله فيما لا فائدة فيه.

وهكذا، فإن من زار تلك الآثار التي تركها السابقون، فإن عليه أن يتأثر لما حصل لهم، ويعتبر بهم، ولا يجعل سياحته مجرد فرجة لا أثر لها في حياته، ولهذا تحض كلمات الله المقدسة على الاعتبار بتلك المشاهد.. قال تعالى: {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [آل عمران: 137]، وقال: { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [الأنعام: 11]

وبين القرآن الكريم أن من لطف الله بعباده أن ترك لهم بعض تلك الآثار حتى تكون عبرة لهم، يستفيدون منها، ولا يقعوا فيما وقع فيه الهالكون من الفساد والإفساد، قال تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [يوسف: 109]

وهكذا، فإن من خلت سياحته من العلم والاعتبار والفائدة والاستجمام المباح كان مفسدا ومترفا، ولم تزده سياحته إلا بعدا عن نفسه، وخسارة لها.

والعاقل يا بني هو الذي لا يكتفي بإرهاق جسده في

السـير في الأرض، والتجـول في البلـدان، فكـل بلاد اللـه متشابهة، والخلاف بينها يسير، ولكن العاقل هـو الـذي يسـير بعقله ويسـيح بروحـه في عـوالم الملـك والملكـوت، فيرحـل منهـا إلى تلـك العـوالم المقدسـة الـتي لا يمكن أن يكتشـف حقيقته من دون رحلة عقله إليها.

لقد قـال بعض الحكمـاء يشـير إلى ذلـك: (لا ترحـل من كون إلى كون، فتكون كحمار الرحى يسير، والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون)

ولذلك، فإن الحكمة تستدعي السؤال عن سر أي حركة ودافعها وآثارها في النفس وآثارهـا بعـد ذلـك على المجتمـع، لتحكم بعد ذلك عليهـا وعلى جـدواها ومشـروعيتها.. فلا خـير في حركة لا ينال صاحبها منها إلا التعب.

ولهذا، فإن الله تعـالى يـوبخ أولئـك الـذين يسـيرون في الأرض من غير عقول تتـدبر، ولا بصـائر تتبصـر، قـال تعـالى: { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُـوبٌ يَعْقِلُـونَ بِهَـا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَـارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُـوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: 46]

فهذه الآية الكريمة تعبر عن أكثر ما يفعلـه قومـك فيمـا يسمونه سياحة، فهم يـذهبون إلى المـواطن الـتي تـدل على الطغيان والجبروت، وبـدل أن تكـون لهم عـبرة، وأن يتـأثروا لحـال المستضـعفين الـذين بنوهـا، والـذين ينتشـر عـرقهم ودمـاؤهم تحت كـل صـخرة من صـخورها، تجـدهم يلهـون ويلعبون ويضحكون.

ولهذا نهى سـيد الحكمـاء رسـول اللـه ﷺ عن أن يـدخل إلى تلـك المنـاطق من دون تـأثر ولا ألم ولا حـزن، ففي الحـديث، قـال ﷺ: (لا تـدخلوا على هـؤلاء المعـذبين إلا أن تكونـوا بـاكين، فـإن لم تكونـوا بـاكين فلا تـدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم) [1]

---

[1] () رواه مالك الموطأ (2119) و (الحميدي) 653 وأحمد 2/ 9 (4561)

بل ورد النهي عن الاستقاء بمائهم أو استعماله، فعنــدما نزل ﷺ بالحجر في غزوة تبوك وقد كان منازل لثمود، أمرهم أن لا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها، فقالوا: قد عجنا منها واستقينا، فـأمرهم أن يطرحـوا ذلـك العجين، ويهريقـوا ذلـك الماء[2].

وليس هذا النهي من باب التحذير من التلـوث الـذي قـد يضر الصحة، بدليل إجازته أن يعلفوا الإبل ذلك العجين، ولكن أنــواع التلـوث لا تقتصـر على التلـوث الظـاهر الـذي يـؤذي الجسد، فهنـاك التلـوث الـذي يخـرب الـروح ويكـدر الصـفاء، والذي نبه النبي ﷺ إليه، وحذر منه.

2() رواه البخاري 6 / 269 ، ومسلم رقم (2981)

ذكرت لي بني ـ متأسفا ـ الحداثة والحداثيين، وتلاعبهم بحقائق الدين وشعائره، وأن منهم من راح يعيد قراءة القرآن الكريم وفهمه بعيدا عن كل أصول الفهم وفروعه التي يقتضيها ظاهر لغته، وما فهمه العرب سلفهم وخلفهم منه على ضوئها.

وذكرت لي أنهم يستعملون لذلك مناهج كثيرة، تنطلق من نزع القداسة عن المقدس، ثم النصوص عن أصحابها، وظاهر ما أرادوه منها، ليتيحوا لأنفسهم الفهم المتناسب مع عقولهم وأهوائهم وبيئاتهم ومدارسهم.

وذكرت لي أنهم لا يحملون في قلوبهم، ولا في ألسنتهم أي تقديس لرسول الله ﷺ، بل إنهم في أحسن أحوالهم يعتبرونه مجرد مبلغ أدى ما عليه، وأنهم لا يحتاجون لفهم كتاب الله مطابقته لفهمه ﷺ، لأنه في تصورهم لا يعدو أن يكون ابن بيئته، يعبر عنها، وعن علومها وثقافتها، ولا يعبر بلسان النبوة الممتد عبر الأزمنة والأمكنة.

وذكرت لي أن أسوأهم حالا من راح يمتهن النبوة، أو يصور أنها مجرد عبقرية، أنتجت منتوجا أدبيا وثقافيا وفلسفيا.. وأنه كما تخضع تلك المنتوجات لكير النقد العلمي، فمثلها ذلك المنتوج المقدس.

وذكرت لي أمثلة ونماذج كثيرة عن ذلك، تجعل من القرآن الكريم حروفا لا معنى لها في ذاتها، وإنما هي أسيرة لدى ذلك الذي يحسب نفسه صاحب مشروع فكري، يتيح له أن يفسر الدين من خلال تفسيره للقرآن، فيقبل ما يشاء منه، ويرفض ما يشاء.

وذكرت لي أن أخطر ما قام به هؤلاء الذين أتيحت لهم كل المنابر الإعلامية ذلك التزهيد في كل الفهوم، بل السخرية منها، وإتاحة الفرصة للعقل، بل للهوى ليفهم من

القرآن الكريم ما شاء، ومن النبوة ما شاء.. وبجرة قلم، يمحو كل ما لا يريده، ويثبت كل ما يريده.

وقد تألمت ـ يا بني ــ كثيرا لما ذكرت لي، وتأسفت عليه، لكني لم أتأسف على القرآن الكريم، ولا على النبوة؛ فهما لا يزالان في محلهما المقدس، ولو اجتمع الخلق جميعا، أولهم وآخرهم على أن يزيلوا حرفا واحدة عن قداستهما ما أطاقوا، وقد قال الله تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } [التوبة: 32]

ولكني أحزن على أولئك الذين يقولون هذا، ويفعلونه.. فهم في عيني لا يختلفون عن الوليد بن المغيرة، ذلك الذي عرف عظمة القرآن، وعرف من خلالها النبوة، وعرف من خلالهما المصدر المقدس لهما.. لكنه خشية على مشروعه الجاهلي، والذي كان هو رئيسه ومرجعه، راح يعتبره سحرا مأثورا.. وليس حقائق مطلقة.

وهؤلاء الذي ذكرتهم ممن تسميهم [حداثيين] يقولون هذا، ويفعلونه.. فهم يعتبرون القرآن الكريم مجرد أخيلة، يتاح لكل شخص أن يتخيلها كما يشاء، ويتلاعب بصورها كما يحلو له.. فيفهم من الدين ما لم يقل به أحد.

ولذلك فإن القرآن الكريم اعتبر سلوك الوليد بن المغيرة نوعا من التفكير.. لكنه ليس تفكيرا حرا نزيها، وإنما هو تفكير مقيد بالمصلحة، ومغلول بالهوى، ولذلك لم يترك لنتائج تفكيره أن تصب في محلها الصحيح، وإنما تدخل، وراح يقدر ما هو المتناسب معها..

لقد قال القرآن الكريم يصفه، ويصف معه جاهلية الحداثة التي لم تخرج عن جاهلية التفكير الأولى: { كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) {فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ

هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} [المـدثر: 16 - 25]

إن هذه الآيات الكريمـة ــ يـا بـني ــ لا تصـف الوليـد بن المغيرة فقط، ولا تصف تفكير المعاندين من قوم رسول الله ﷺ فقط، وإنمـا تصـف كـذلك ومعـه كـل المعانـدين من أهـل الجاهلية الأولى، أو الجاهلية الأخرى.

فأول صفات هؤلاء العناد.. الذي لا يبتغي صـاحبه الحـق، وإنما الجدال في الحق، حتى يصور الحقائق الظاهرة للعيــان بالصور التي تتناسب معه، والتي يريدها، حتى لو جحدت كــل شــيء، لأن هدفــه ليس الاستبصــار، وإنمــا التضـليل.. وليس الحقيقة، وإنما الهوى.

وقد أخبر الله تعـالى أن من مقتضـيات الابتلاء والاختبـار الإلهي أن يمد لهذا العنيد كل الأسباب الـتي تمـد عنـاده، وأن يعطى الحرية المطلقة ليقوم بدوره في التضليل، حتى يكون دوره كدور الشـيطان الـذي يمـيز بـه بين الطيـبين والخبثـاء، والمحقين والمبطلين.

إن آفة هـؤلاء يـا بـني لا ترتبـط بـالعلم، ولا بـالبحث، ولا بالحقيقة، وإنما ترتبط بالعناد.. فالحداثة التي ذكرتها لي ليس سـوى المعانـدة.. الـتي تجعلهم يـتركون الحقيقـة الواضـحة، لكونها لم تصـدر عنهم، وإنمـا صـدرت عن غـيرهم.. ولكونهـا صدرت بالشكل الذي لا يريدونه، وهم يريــدون من الــدين أن يكون وفق مرادهم، أو ألا يخرج عن مرادهم.

لقد قال المعانـدون من القـدامى ذلـك، فقـد حكى اللـه على ألسنتهم قولهم: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف: 31]

وهكذا هؤلاء.. لكنهم بدل أن يقولوا قولة أهـل الجاهليـة الأولى، فـيربطوا النبـوة بأمكنـة يختارونهـا، راحـوا يربطـون النبوة بأزمنة يختارونها.. ويتصورون أنـه ــ حـتى لـو لم يـنزل القرآن الكريم ـ في هذا العصر، فيمكن التحايل على ألفاظـه

لتحويلها إلى هـذا العصـر، لا بالأحكـام والقيم الـتي جـاء بهـا، وإنما بأحكام جديدة وقيم جديدة، تفرض عليه فرضا.

إن هؤلاء يا بني ليسوا سوى أفـراد من أولئـك الـدجالين الذين أخبر رسول الله ﷺ عنهم، وحذر منهم، واعتبرهم فتنــة للخلق يصـرفونهم عن الحـق.. وأن مثلهم لا يخلـف عن ذلـك السـامري الـذي راح يقـوم بتحـديثات في دين موسـى عليـه السـلام، أو أولئـك الأحبـار والرهبـان الـذي راحـوا يقيمـون تحديثات على أديانهم لتتناسب مع أهوائهم.

ولذلك فإن هؤلاء ـ يـا بـني ــ لا علاقـة لهم بالحداثـة ولا بالعصــر.. وإنمــا هم مرتبطــون بأفكــار ومنــاهج رددهــا أهــل الجاهليات من قبلهم.. أما ذلك اللقب الذي نسبوه لأنفســهم، فهـو مجـرد حيلـة يحتـالون بهـا على العقـول، كأولئـك الـذين يشربون الخمر، ويسمونها بغير اسمها.

والدليل على ذلك أنهم يطنبون في التحذير من التقليــد، وهم مقلدون لأساتذتهم من أصحاب المـدارس الغربيـة.. مـع أنه كان في إمكانهم أن يسـتفيدوا من كـل المـدارس، لكنهم أبوا إلى التقليد.

وهم كـــذلك يطنبـــون في رمي العلمـــاء والفقهـــاء والمفسرين بالبلادة، وأنهم لم يقدموا لعصـورهم أي خـدمات علمية، وينسون أنهم يرمونهم بالحجـارة، مـع أن بنيـانهم من الزجـاج، فهـل وجـدت حـداثيا اسـتطاع أن يكتشـف اكتشـافا علميا، أو يخترع ما يعاتب غيره على التفريط فيه.

هم يا بـني لا يتقنـون سـوى بضـاعة النقـد، ولا يحملـون سـوى سـيوف الهـدم.. مـع أنـه كـان يمكنهم أن ينقـدوا مـا يسـتحق النقـد، ويكتفـوا بـه.. ويهـدموا مـا يسـتحق الهـدم، ويعوضوا بدله البنيان الصالح.. لكنهم بعـد التفكـير والتقـدير.. وبعد أن منحت لهم كل فرص الهدايـة أبـوا إلا ركـوب أمـواج أهــوائهم، والتلاعب بالحقــائق والقيم، ثم إشــاعة ذلــك في المجتمعات، حتى يقال: لفلان مشروع فكري حداثي.. ليكون

ذلك فرصة له للظهور بعد الخمول، والغنى بعد الفقـر.. وهـو نفس ما ذكره الله تعـالى عن أولئـك الـذين حرفـوا وبـدلوا، وباعوا دينهم بمتاع من الدنيا قليل، قال تعالى: {فَوَيْـلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْـدِ اللَّهِ لِيَشْـتَرُوا بِـهِ ثَمَنًـا قَلِيلًا فَوَيْـلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْـدِيهِمْ وَوَيْـلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} [البقرة: 79]

وهـؤلاء كـذلك، فهم يكتبـون مـا يفهمونـه بـأهوائهم من القرآن الكريم، ثم ينسـبوه للـه ورسـوله، ليشـتروا بـذلك مـا شـاءت لهم نفوسـهم من المنزلـة والجـاه والسـلطان، ومـا يتبعها من الثروات والأموال.

ما أكثر أوهام الخلق في الحرية يا بني .. إنها السبب الأكبر في كل ما يحصل لحياتهم وحقائقهم ولطائفهم من مآس..

فإبليس لم يمتنع للسجود لآدم عليه السلام، ولم يتجرأ على مخالفة ربه، إلا طلبا لحريته التي بلغ به سعيه في الحصول عليها أن يستكبر على الله، ويأبى الخضوع له، ويتمرد على من طُلب منه أن يبدي له احترامه وتقديره، ويحييه بالتحية التي تليق به.

وفرعون عندما صاح قائلا:{ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: 24] لم يكن دافعه لذلك إلا تلك الحرية التي شعر بها، وجعلته يحاول الخروج من كل الكون ونواميسه، لينشئ لنفسه كونا خاصا يكون هو إلهه.

وأقوام الأنبياء، والملأ الذين استكبروا منهم لم يتكبروا على تلك الجواهر المقدسة التي أرسلها الله لهم لهدايتهم إلا طلبا لتلك الحرية الوهمية المزيفة التي صورت لهم أن الانتساب لله، سيلغي انتسابهم لأنفسهم، وسيمنعهم من حرية التحرك وفق ما تقتضيه أهواؤهم ونفوسهم الأمارة بالسوء.

وسارتر ـ ذلك الذي يزعمون أنه حكيم، والذي حدثتني عن أنبائه ـ لم يتمرد على ربه إلا بعد أن شعر أن وجود الله يلغي وجوده، وأنه كي يتحرر يحتاج إلى أن يلغي الله من حياته.

وهكذا غيره ممن يسمونهم فلاسفة وحكماء وأصحاب فكر نيّر.. كلهم واهمون.. لأنهم تعلقوا بوساوس شيطانية زينت لهم التمرد، وسمته حرية.

وهم في ذلك مثل الرضيع الذي يعتقد أن اكتفاءه

بالحليب الذي تدره رحمة أمه عليه، قيود تحد دون حريته في الغذاء.. فيتركها.. ويلقى كل أصناف البلاء بذلك.

وهذا المثل يـا بـني ليس بعيـدا .. بـل هـو عين الحقيقـة التي رآها العـارفون رأي العين.. فـالخلق جميعـا ــ كمـا قـال الحكماء ـ أطفال في حجر الحق[1] .. والله ـ بكرمه ولطفه ـ يتعامل معهم بكل ألوان الحنان.. ويغدق عليهم كل ما ينفعهم من ألوان الفضل.. وإن حـرمهم من شـيء، فإنـه لا يحـرمهم منه إلا رحمة بهم، مثلمـا تفعـل الأم عنـدما تحـرم ولـدها من الطعام الذي يضر بمعدته؛ فإن تمـرد الولـد عليهـا، وأكـل مـا يضره، طلبا لحريته، لم ينل من ذلك إلا الضرر لنفسه.

والخلق ـ يا بـني ــ أطفـال في مدرسـة رب العـالمين.. واللـــه يســـير بهم وبهممهم.. ويعلمهم من الاختبــارات الـــتي يضعهم فيها، كيف يرتقون إلى أعلى العليين، وكيف يخرجون من مستنقعات أسـفل سـافلين.. فـإن هم تمـردوا على تلـك الاختبارات، وعصوا من أمروا بطاعتـه، وتجـاوزوا حـدود اللـه طلبا لحريتهم، لم ينالوا إلا ما يناله أولئك المشاغبون الذين لا ترضـــي نـــزواتهم إلا التمـــرد على أســـاتذتهم ومقـــرراتهم ودروســـهم، ثم لا ينـــالون بعـــدها إلا الفشـــل .. ليس في مدارسهم فقط، وإنما في حياتهم جميعا.

والخلق ـ يا بني ـ مثل أولئـك الأطفـال الـذين يحتـاجون إلى رعاية خاصة، تحمي نفوسـهم من العقـد، وتلقي بهم في الحياة إلقاء جميلا.. فإن هم تمردوا على ذلك طلبـا لحـريتهم الوهميـــة، امتلأت نفوســـهم بالعقـــد، وامتلأت حيـــاتهم في

---

[1] () وقد ورد في الحديث ما يشير إلى هذا، فقد روي أن رسـول اللـه ﷺ رأى امرأة قد فرق بينها وبين ولدها، فجعلت كلمـا وجـدت صـبياً أخذتـه فألصـقته بصـدرها وهي تبحث على ولدها، فلما وجدته ضمته إليه وألقمته ثـديها، فقـال رسـول اللّـه ﷺ: (أتـرون هـذه طارحـة ولـدها في النـار وهي تقـدر على أن لا تطرحـه؟)، قـالوا: (لا يـا رسول اللّه)، قـال: (فواللّـهِ، للُّه أرحمُ بعبـاده من هـذه بولـدها) (البخـارى (5/2235، رقم 5653) ، ومسلم (4/2109، رقم 2754)

مجتمعاتهم بالصراع.

والخلق ـ يا بني ـ مثل المرضى أمـام الأطبـاء، فـإن هم تمردوا على الأدوية التي أمروا بشربها، والحميـة الـتي أمـروا باستعمالهم، فإن الأمراض ستفتك بهم لا محالة إلى أن يصبح الدواء نفسه غير ذي جدوى فيهم.

لـذلك كلـه، فـإن الحريـة الـتي ينـادي بهـا كـل أولئـك .. ليست سوى تمرد على سنن الكون ونظامه الذي أسسه الله عليـه، لتمتلئ الحيـاة بالسـلام، وتمتلئ النفـوس بالطمأنينـة، وتمتلئ المجتمعات باحترام بعضها بعضـا، وسـعي بعضـها في مصالح بعض.

ولـذلك فـإن الحريـة الحقيقيـة يـا بـني .. هي أن تشـعر بصلتك بربك، وأنك بعبوديتك له، تكسـب كـل الكمـالات الـتي تحتاجهـا.. وتنـال كـل الفضـائل الـتي تهيء روحـك للمـراتب العاليـة.. تلـك المـراتب الـتي يسـتحيل على المتمـردين أن يصلوا إليها، أو يدركوا مدى جمالها ورقتها وعذوبتها.

لذلك كانت الحرية هي عين العبودية.. فمن لم يعبد ربـه سقط في عبادة الشـيطان.. وبعبادتـه للشـيطان يسـقط في عبادة نفسه وهواه.. وعندما يـؤول الأمـر بـه إلى ذلـك تغلـق عليه جميع أبواب الخير، وتفتح عليه جميع أبواب الشر.

لقد ضرب الله لنا المثال على ذلـك في القـرآن الكـريم بنهي الله تعالى لآدم عليـه السـلام عن الأكـل من الشـجرة.. بينما أتـاح لـه الحريـة في الأكـل من غيرهـا.. لكن الشـيطان بوساوسه لم ينظر إلى كل ما أتيح للإنسـان، وأبيح لـه، وإنمـا راح يلفت انتباهه إلى ما حرم عليـه، ليجعلـه متوهمـا أن كـل الجمال والكمال في ذلك الممنوع.

وعندما أكل الإنسان من الشـجرة الـتي منـع من الأكـل منها، عرف أن الله تعالى مـا نهـاه عن الأكـل منهـا إلا رحمـة به.. فالآكل من تلك الشجرة لا يمكن أن يبقى في الجنـة، ولا يمكن أن يظل في ذلك الرفاه الذي وفر له.

وكذلك ـ يا بني ـ كل تلك المحظورات التي أمرنا باجتنابها، فتوهم دعاة الحرية أنها ليست سوى قيود تحد من حرية الإنسان، بينما هي في حقيقتها ليست سوى سموم تقضي على الحياة.. والله تعالى ما قيدنا بها إلا لمصلحتنا ورحمته بنا.. وهي مثل تلك القيود التي يفرضها الطبيب على مريضه حرصا على صحته.. أو تلك الواجبات التي يفرضها الأستاذ على تلميذه حرصا على نجاحه.. أو تلك الممارسات الرياضية التي يفرضها المدرب على من ينتسب لفريقه تقوية لعضلاته..

فهل يمكن لعاقل أن يعتبر الطبيب أو الأستاذ أو المدرب أو غيرهم يقومون بممارسات تحد من حرية الإنسان؟

ولو كان الأمر كذلك، فلم يبذل الناس أموالهم طلبا لتلك القيود التي يقيدونهم بها لأجل مصلحتهم؟

ولو أنهم نظروا إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام بتلك العين التي ينظرون بها لأولئك الذين يحدون من حريتهم، لعرفوا أن نصائح الرسل ووصاياهم لا تقل عن تلك النصائح والوصايا إن لم تتفوق عليها.

فالرسل عليهم السلام لا يكتفون بدعوتهم لإصلاح ظواهرهم، وإنما يدعونهم لإصلاح بواطنهم.. ولا يكتفون بإصلاح دنياهم، بل يبذلون كل جهودهم لإصلاح آخرتهم.. فهل يمكن اعتبار هؤلاء مقيدين لحرية الإنسان؟ وهل يمكن اعتبار تعاليمهم السامية أغلالا تحد من حريته؟

إنهم واهمون يا بني، فلا هم تنويريون، ولا هم منـوّرون.. بل هم قوم غارقون في الظلمات، وكل مـا تـراه حـولهم من أضواء، وكل ما تمتلئ به مدنهم من مصابيح لن يشعل شمعة واحدة في قلـوبهم.. والنـور الـذي لا يشـع من القلب ظلام.. والمصـابيح الـتي لا تقتبس نورهـا من مشـكاة النبـوة مجـرد زجاج معتم مظلم، لا يتيح لأصحابه إلا تلك الرؤية التي توهمها المنـافقون يـوم القيامـة، ثم أظلمت عليهم أحـوج مـا كـانوا إليها.

لقد ذكر الله تعالى ذلك في القرآن الكريم، وبين لنا من خلاله حقيقـة النـور، وحقيقـة الممسـكين بمصـابيحه، فقـال: {يَـوْمَ يَقُـولُ الْمُنَـافِقُونَ وَالْمُنَافِقَـاتُ لِلَّذِينَ آمَنُـوا انْظُرُونَـا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُـورٍ لَـهُ بَـابٌ بَاطِنُـهُ فِيـهِ الرَّحْمَـةُ وَظَـاهِرُهُ مِنْ قِبَلِـهِ الْعَذَابُ} [الحديد: 13]

إن هـذه الآيـة الكريمـة تلخص حقيقـة النـور، فهـو ليس نابعا من داخل الإنسان، ولا ناشئا عن عقله وهواه.. وإنما هـو هبة إلهية لأولئك الذين اجتهدوا صادقين في التماسه.. وكانت مشكاتهم ومصابيحهم جاهزة بتواضـعها وأدبهـا للاقتبـاس من نور الله.. الذي لا نور في الكون غيره.

لقد قال تعالى يوضح هـذه الحقيقـة العظيمـة الـتي تـاه عنهـا أولئـك الـذين يـدعون التنـوير: {اللَّهُ نُـورُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْـبَاحُ فِي زُجَاجَـةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَـجَرَةٍ مُبَارَكَـةٍ زَيْتُونَـةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِـيءُ وَلَـوْ لَمْ تَمْسَسْـهُ نَـارٌ نُـورٌ عَلَى نُـورٍ يَهْـدِي اللَّهُ لِنُـورِهِ مَنْ يَشَـاءُ وَيَضْـرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَـالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [النور: 35]

فالآيـة الكريمـة توضـح أن النـور صـفة إلهيـة، وأنـه في

خزائن الله وحده، وأنه الواهب الوحيد لـه.. ولـذلك فـإن من لم يتنـور بنـور اللـه، واسـتكبر أن يقتبس من تلـك السـرج المنيرة التي أرسلها الله لعباده ليشعلوا مصـابيح الهدايـة في قلـوبهم، لن يصـلوا إلى شـيء، وسـيظلون غـارقين في الظلمات.. فـ {مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَـهُ نُـورًا فَمَـا لَـهُ مِنْ نُـورٍ} [النور: 40]

ولذلك فإن أولئـك التنـويريين وإن أشـعلوا كـل مصـابيح بيوتهم ومدنهم، إلا أنهم بغفلتهم عن إشعال مصـابيح قلـوبهم من مشكاة النبوة صاروا ظلامـيين، وغـارقين في الظلمـات.. كما بين ذلك قوله تعـالى: {وَالَّذِينَ كَفَـرُوا أَعْمَـالُهُمْ كَسَـرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَـدَ اللَّهَ عِنْـدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَـابَهُ وَاللَّهُ سَـرِيعُ الْحِسَـابِ (39) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَـوْجٌ مِنْ فَوْقِـهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَـدْ يَرَاهَـا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ } [النور: 39، 40]

لا تتوهم يا بني أنني أبالغ حين أذكر هذا.. أو أنـني أدعـو إلى التخلف، ونبذ كل تقدم علمي.. أو أقف ضد كـل حضـارة ورقي وتطور.. أنا لا أفعـل ذلـك.. وإنمـا أقـف ضـد اسـتغلال النور والتنوير في ذلك كله.

فأولئـك الواهمـون يتصـورون أنـه لا يمكن أن نشـعل مصابيح المدن إلا بعد إطفـاء مصـابيح القلـوب.. أو يتوهمـون أن مصابيح القلوب يمكنها أن تنير لهم من غير السرج الإلهية التي لا يمكن لأحد أن يبصر الحقائق من دونها.

لذلك كان ادعـاؤهم للتنـوير كـذبا وزورا وخـداعا.. فاللـه تعالى ما حرم علينا أن نضيء مصابيح مـدننا، ولا حـرم علينـا السعي في الأرض، ولا حرم علينا كل مظاهر التقدم والتطور والرفاه المتناسب مع الإنسـان.. وإنمـا حـرم علينـا السـقوط في أوحـال الهـوى، والإعـراض عن النبـوة، والاستضـاءة بمصابيح الشياطين.

لقد كان سليمان عليه السلام نبيا تنويريا.. كان قلبه يضيء بالهداية الإلهية، وكانت أخلاقه أخلاق الصديقين.. لكنه مع ذلك كان صاحب مدنية وحضارة لم تصل إليها أرقى حضارات من يدعون التنوير.. فالتنوير لا يجعلك تطفئ مصابيح مدينتك، وإنما يجعلك تشعل مصابيح قلبك.

وذو القرنين .. ذلك الحاكم الصالح .. تعلم كل العلوم، وأتقن كل الصنائع، وسار في الأرض، ليخلص الخلق من كدر العيش وضيقه، ويقف مع المستضعفين ضد الظالمين.. ولكنه لم يكن يهتدي في ذلك كله إلا بذلك النور الذي امتلأ به قلبه، فأبصر الحقائق كما هي لا كما تمليها عليه الشياطين.

وهكذا فإن كل الأنبياء والأولياء .. كان همهم الأكبر أن يشعلوا مصابيح القلوب بأنوار الهداية، فإذا اهتدت إلى الحقيقة، وتحققت بالإنسانية، واستنارت بنور الله.. كان لها أن تتبع سنن الله في تحقيق كل مظاهر الرفاه التي لم تنه الشريعة عنها.

وعدم وجود مظاهر الرفاه، أو تحققها في حياة النبي أو الولي، لا يعني أبدا أنه ليس تنويريا، ولا منورا، فقد وصف الله تعالى رسول الله ﷺ بأنه ليس نورا فقط، وإنما سراج للأنوار، فقال: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46)ـ } [الأحزاب: 45 ـ 47] مع أن البداوة كانت غالبة في ذلك الحين..

لكن أنوار القلوب والعقول التي لا يمكن لأي حضارة أن تقوم بدونها كانت كلها مقتبسة من ذلك السراج الذي لا يزال يضيء.. بل لن ينطفئ أبدا، كما قال تعالى: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } [الصف: 8]، ثم عقب عليها بقوله: { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } [الصف: 9]

ولهــذا، فــإن من يســتكبر على تلــك الســرج المنــيرة، ويتــوهم أنــه يمكنــه أن يصــل إلى الحقــائق من دونهــا، ثم يستعلي عندما يرى مصابيح مدينته مشتعلة، فإنــه واهم، ولن يعيش إلا السراب.

ألا ترى يا بني أن كل الحروب التي حصلت في القــرون الأخيرة قام بها تنويريـون ودعـاة تنـوير.. ومثلهـا الاسـتعمار.. والاستكبار.. وكل مظاهر التمييز العنصـري.. كلهـا بـرزت من لدن أولئك الذين توهموا أنهم الأفضل والأقدر والأقوى.. وقــد وصل بهم عتوهم إلى إلغـاء اللـه لتـوهمهم أنهم قـد اسـتغنوا باختراعاتهم عنه.

لقد ذكر الله تعالى هـؤلاء.. لكنــه لم يسـمهم تنـويريين، وإنما سماهم طغاة، فقال: { كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَــانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى } [العلق: 6، 7]

وكــل أولئــك التنــويريين لا يجتمعــون على شــيء، كمــا يجتمعـــون على الشـــعور بالاســـتغناء عن اللـــه.. بـــل إنهم يتصـورون أن الحاجـة للـه قـد زالت بعـد أن وصـل الإنسـان بعقلـه إلى المصـابيح الكهربائيـة الـتي توهمـوا أنهـا يمكن أن تلغي المصابيح الربانية.

هذه صفات التنويريين يا بني .. فاحذر منها، ومن الدجل المرتبط بهـا.. فإنـك لن تصـل إلى اللـه إلا بعـد وصـولك إلى أنــواره.. ولن تصــل إلى أنــواره إلا من خلال تلــك المصــابيح والسرج المنيرة التي جعلها الله منابع للهداية، ومصادر لهــا.. ولا يمكن لأحد أن يقتبس نوره، وهو مستعل عليهـا، مسـتكبر على تعاليمها.

العبودية

العبودية لله ـ يا بـني ــ هي أشـرف مـراتب الإنسـانية.. فمن تحقق بها نال الكمال الإنساني.. ومن لم يتحقق بهـا، أو نفر منها، أو كان فيه بعض النفور من مقتضياتها، حل فيه من النقص بقدر نفوره.. ثم تعذب بـذلك النقص إلى أن يتداركـه، أو يبقى في العذاب أبد الآبدين.

هذه هي الحكمة التي خلص إليها كل العقلاء المتـذوقين للحقائق من منابعها التي لم تكدر، المستنيرين بالسرج الـتي لا تنطفئ.. لقـد رأوا ذلـك رأي العين.. وكُشـف لهم الحجـاب عنها، فصارت من الوضوح بحيث يكادون يرونها بأعينهم.

أمــا غــيرهم ممن لم يكشــف لهم الحجــاب، فيمكن أن يشرح لهم معناها بوسائل التقريب والإيضاح، ليعلموا أن هذه الحقيقة ليسـت ذوقيـة ولا شـهودية فقـط، وإنمـا هي حقيقـة عقلية أيضا.

والمبـــدأ الـــذي تســـتند إليـــه مبـــدأ تســـتند إليـــه كـــل الموجـودات.. فكلهـا عبـد للـه.. وكلهـا لا تنـال حقيقتهـا، ولا سعادتها، ولا سلامها من دون عبوديتها لله، كمـا قـال تعـالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَـانٌ فَقَـالَ لَهَـا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَـا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: 11]

فالعبودية هي تلـك الأرض المعبـدة الطيبـة الـتي يتـنزل عليهـا الفضـل الإلهي المتناسـب معهـا.. فـإن كـانت الأرض صخورا صماء، أو رمال قاحلة، أو مستنقعات أســنة.. لم تكن أهلا لاستقبال الفضل الإلهي.. بل كانت أهلا لاسـتقبال الجـوع والعطش والحشرات السامة.

أمـا من كـانت أرض قلبـه كلهـا معبـدة مهيـأة صـالحة التربة.. فإن كل قطرة مطر تنزل عليهـا، سـتنبت كـل أنـواع الثمـار النافعـة، والأزهـار الجميلـة، حـتى تتحـول نفسـه إلى حديقة غناء، أو جنة زاهية..

ومن كانت أرض قلبه مختلطة بين الصخور الصماء، والمستنقعات الأسنة، والتربة الطيبة الطاهرة.. لم ينل إلا حظا محدودا من تلك الجنان، فيسعد ببعضه، ويشقى ببعضه.. ولذلك كان ألمه بنفس القدر الذي ضيع فيه عبوديته، أو عبودية أرض نفسه.

أظن أنك فهمت يا بني ما أقصد.. فالعبودية هي ذلك اللين الذي يبديه العبد لربه.. وتلك الطمأنينة التي تمتلئ بها جوانح النفس عندما يتنزل عليها المدد الإلهي.. وذلك التسليم لله ولأمره.. والذي يجعل الإنسان كالميت بين يدي الغسال، أو كالريشة في مهب الريح..

حينها فقط يمكن أن يستقبل الإنسان المدد الإلهي، ويتشبع به، ويستفيد منه، ويسعد معه.. فإن استكبر أو طغا أو تعنت أو امتلأ بالأنانية، فإنه سيظل حبيسا في سجن نفسه.. ولن ينال الفضل الإلهي حتى يخرج من سجونه.

فالفضل الإلهي رسالة لا يمكن أن تتنزل إلا على الأوعية التي تستعد لاستقبالها.. وذلك الاستعداد هو عين العبودية.. ولذلك فإن من لم يتوفر له ذلك الاستعداد، أو تلك القابلية عاش ممتلئا بالشقاء.. ظمآنا مع أن الماء أقرب إليه من فمه.. فالماء لا يمكنه أن يزور فما غير مستعد لاستقباله.

لقد ذكر الله تعالى ذلك في القرآن الكريم، فقال: { قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16) أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ } [الرعد: 16، 17]

فهذا المثل يا بني إن تأملت فيه يختصر لك حقيقة العبودية التي لا تخرج عن كونها توفيرا لأدوات الاستقبال، وتصحيحا لها، فمن اتسع وادي قلبه، كان له من المدد

بحسب اتساعه.. ومن ضاق ضيق عليه.. ولهذا اختلفت درجات السعادة في الدنيا والآخرة.. وكلها ترجع للعبودية.. فلا سعادة من دون تحقيق العبودية.

لقد أشار رسول الله ﷺ إلى ما يقرب ذلك المثل، فقال: (إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيثٍ أصاب أرضاً فكانت منها طائفةٌ طيبةٌ، قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا. وأصاب طائفةٌ منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به) [1]

لذلك كان أسعد الناس بالعبودية أسعدهم بفضل الله، وأكثرهم قربا منه، وأكثرهم سلاما وطمأنينة.. ولهذا وصف الله تعالى رسوله ﷺ ، وفي أشرف المقامات بذلك، فقال: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (الاسراء:1)، وقال: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً} (الجن:19)

هذه هي العبودية يا بني .. والتي لا تُنال الحرية الحقيقية من دونها.. ذلك أن الذي يتحقق بها يخرج من سلطان هواه، ويدخل في سلطان الحق، ويتحرر حينها من كل سلطان للشيطان عليه، لأنه لا يقترب إلا ممن فيه حظ منه، كما قال تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} [النحل: 98 - 100]

ولهذا وصف الله تعالى المتحررين من كيد الشيطان

---

[1] رواه مسلم (2282)

واستعماره وسلطانه بكونهم عبيدا لله، قال تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } [الحجر: 42]

فمن وقع في الغواية خرج من العبودية، وصار فيه استعداد لاستحواذ الشيطان عليه، كما قال تعالى: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ } [المجادلة: 19]

فإن نسي العبد ذكر الله، نسي عبوديته، وتحول من حزب الله إلى حزب الشيطان، قال تعالى: {أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المجادلة: 19]

فإن حصل له ذلك انتكست حقيقته الإنسانية لتصبح حقيقة شيطانية.. وحينها يمتلئ بالعذاب.. فكل من خالف حقيقته وفطرته التي فطر عليها امتلأ بالعذاب، بقدر مخالفته.

فاحرص يا بني بعد سماعك لهذه الحكمة القرآنية أن تجتهد في تحقيق العبودية لله، والتسليم المطلق له.. فالخير كله عنده.. والحرية كلها لديه.. والسعادة كلها في خزائنه.

لا .. ولن يكون ذلك أبدا.. فالورع يا بني ليس عقدة.. ولا مرضا نفسيا.. ولا تشددا.. ولا كل تلك الأوصاف التي ذكرها لك من يزعم أنه أستاذك..

فأنا مع احترامي له إلا أني لا أقبل هذا الموقف منه.. فالورع علامة حياة القلب الطاهر، وسمة النفس المطمئنة، وصفة الروح الزكية.. ولولا ذلك ما قال رسول الله ﷺ، وهو سيد الطاهرين العابدين العارفين: (إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة) [1]

أتدري لم قال رسول الله ﷺ هذا؟.. إن الاستغفار الكثير، ولأدنى شيء، علامة على شدة الورع والتقوى والطهارة.. فهو ﷺ كلما تطلع إلى أعماله، وقارنها بحق الله عليه شعر بالتقصير، وأن حق الله أعظم من أن يؤدى، فلذلك يسارع إلى الاستغفار، ويطلب العفو من ربه الذي لا يستطيع أن يؤدي حق عبوديته.

قارن هذه النفس الطاهرة والأدب العظيم ــ يا بني ـ بأولئك المغرورين المستكبرين الذين صرفهم النظر إلى أنفسهم وأعمالهم عن النظر إلى الحق وعظمته، ولذلك توهموا أعمالهم عظيمة، لأنهم قارنوها بأنفسهم، ولم يقارنوها بالله.

ولذلك لم يكن الورع عقدة نفسية، ولا دليلا على التشدد والتنطع، وإنما كان علامة على الأدب والطهارة والمعرفة..

فالأدب هو الذي يجعل الورع يحتاط في كل سلوك يقوم به خشية أن يكون فيه أذى أو مضرة لم يدركها.. لهذا تجده يسارع كل حين إلى طلب الصفح وإبراء الذمة خشية أن يكون قد وقع في التقصير، أو وقع منه ما لا يليق.

---

[1] () رواه مسلم (2702) (41) ، وأبو داود (1515)

لقد فعل رسول الله ﷺ ذلك، وهو سيد الورعين، فقد روي أنه عندما كان يقوم بتسوية صفوف أصحابه يوم أحد تهيئة لهم للمعركة، وكان في يده قدح يعدل به الصفوف، فمر ببعض الصحابة، وهو خارج من الصف، فطعن رسول الله ﷺ في بطنه بالقدح، وقال: استو يا سواد، وكان اسمه سوادا، فقال: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالعدل، فأقدني، فقال له رسول الله ﷺ، وهو في ذلك المحل ينتظر بدء المعركة: (استقد)، أي اقتص مني، فقال: يا رسول الله إنك طعنتني وليس علي قميص، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: استقد، فاعتنقه سواد، وقبل بطنه، وقال: إنما أردت هذا يا رسول الله، فقال ﷺ: ما حملك على هذا يا سواد؟ فقال: يا رسول الله، حضر ما ترى، فلم آمن القتل، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير[2].

هل رأيت يا بني آدابا أعظم من هذه الآداب؟.. وهل شاهدت في حياتك، وفي مثل هذه المواقف علاقات ممتلئة بالطيبة مثل هذه العلاقات؟

إنها لم تكن لتحصل لولا الورع .. فالورع هو الذي جعل رسول الله ﷺ في ذلك الموقف الشديد الذي يحضر فيه لأرض المعركة التي تريد أن تستأصل الإسلام والمسلمين، يترك تسوية الصفوف، ثم يكشف عن بطنه ليقتص ذلك الجندي منه.

ألا ترى يا بني أن هذا السلوك سلوك حضاري، لا يقوم به إلا أصحاب النفوس المهذبة المتحضرة الذين يلتزمون بكل ما تلزمهم به الآداب، ثم يعتذرون بكل حياء عن أي تقصير يكون قد وقع منهم؟

ولذلك كان رسول الله ﷺ مثال الأدب الرفيع، لأنه كان سيد الورعين، وكان حساسا إلى درجة كبيرة، خشية أن

2() معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني: 3133.

يؤذي أي أحد من الناس، حتى أنه قال: (إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه) [1]

والورع ـ يا بني ـ علامة الطهارة.. ألا ترى الثوب الأبيض النظيف كيف تظهر فيه أدنى الأوساخ.. بخلاف الثوب الممتلئ بالأوساخ، والذي كثرت عليه، فصار لا يُفرق بين الجديد منها والقديم.

أما الورع.. الذي يراعي قلبه كل حين، فيتفقد كل الفتن التي ترد عليه، والسهام التي تصوب نحوه، فينزعها، ويعالجها، ويعقم الموضع الذي أصيب فيه، فإن هذا حري بأن يكون طاهرا سليما، متحققا بإنسانيته في صورتها الكاملة.

والورع ـ يا بني ـ علامة المعرفة.. ذلك أن القلب هو المرصد الموجه لعالم الحقيقة، فإن كانت عدسته ملطخة ممتلئة بالضباب، امتنعت عليه الرؤية.. بل ربما تختلط عليه، فيرى المنكر معروفا، والمعروف منكرا.

لقد أشار الله تعالى إلى ذلك، وبين دور الذنوب صغيرها وكبيرها في تشكيل البقع الحائلة بين القلب والمعرفة الصحيحة، فقال: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: 14]

وقد فسره رسول الله ﷺ، فقال: (إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت) [2]

هل رأيت يا بني خطر الذنوب، فآثارها لا تقتصر على تلك الأوزار التي تؤخَّر عقوبتها للآخرة، بل إن من أخطر آثارها تلك العقوبات المرتبطة بالعاجل قبل الآجل، وأخطرها

---

[1] البخاري (707) و (868) ، وأبو داود (789) ، وابن ماجه (991)

[2] ابن ماجه (4244) ، والترمذي (3334) ، والنسائي في عمل اليوم والليلة (418)

ذلـك الـران الـذي يحـول بين القلب وبين إدراك الحقـائق أو التسليم لها.

ولذلك فـإن أكـثر المجـادلين في الـدين، أو المعترضـين على الرسل، أو المحتالين على الشرائع، لم يدعهم إلى ذلـك حجج قاطعـة، ولا بـراهين ناصـعة، وإنمـا دعـاهم إليـه تلـك القـاذورات الـتي طغت على قلـوبهم؛ فمنعتهم من رؤيـة الحقائق بجمالها وطهارتها.

لا شـك أنـك تريـد مـني مثـالا على ذلـك.. ولـك ذلـك.. فلقمان لم يكن يـربي ولـده إلا بالأمثلـة.. والأمثلـة جنـد اللـه التي تنقذ عباده من الغموض والإشكال.

إن مثل ذلك يا بني مثل العسـل الـذي يوضـع في وعـاء مملوء بالقذارة والسموم، أو يخلط به.. حينها سيصبح العسل مسـموما.. وقـد يصـبح مذاقـه مـرا.. والمشـكلة ليسـت في العسل، ولكن في الوعـاء الـذي وضـع فيـه.. أو المـواد الـتي خلطت به.

ولذلك تـرى الحقـائق واحـدة.. لكن بعضـهم يسـلم لهـا، ويفرح بها، وتؤثر في سـلوكه وأخلاقـه، وحياتـه جميعـا.. لكن منهم من تكون فتنة له.

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: {وَإِذَا مَـا أُنْـزِلَتْ سُـورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُـولُ أَيُّكُمْ زَادَتْـهُ هَـذِهِ إِيمَانًـا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُـوا فَـزَادَتْهُمْ إِيمَانًـا وَهُمْ يَسْتَبْشِـرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُـوبِهِمْ مَـرَضٌ فَـزَادَتْهُمْ رِجْسًـا إِلَى رِجْسِـهِمْ وَمَـاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } [التوبة: 124، 125]

وقد ضرب الله مثالا على ذلك بالمـاء الـذي يتـنزل على الأرض، لكن الوعاء المستقبل له هو الذي يحـدد نـوع النبـات الذي ينبت به.. فالماء واحـد، والثمـار مختلفـة.. قـال تعـالى: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَـاءٍ وَاحِـدٍ وَنُفَضِّـلُ بَعْضَـهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [الرعد: 4]

لذلك كان الورع يا بني هو المنجل الذي تطهر به أرض نفسك من كل الحشائش الضارة التي تعتم عليها الرؤية، وتحول بينها وبين الترقي، أو تصرفها عن السير إلى الله.

والورع يا بني هو التقوى التي تجعل بينك وبين غضب الله آلاف الحواجز.. وهي التي تقي قلبك من أن يمتلئ بالكدورات التي تغمسه في مستنقعات الأهواء والرذيلة.

ولذلك كان علامة الكمال، لا علامة النقص.. فالناقص هو المستسلم لنفسه وأهوائه وشيطانه، والكامل هو الذي يواجه كل ذلك، ويقاومه.

ولست أقصد يا بني بالورع الوسوسة.. فهي مرض من الأمراض، أو هي ورع بارد لا قيمة له.. لأنها تنطلق من نفس مريضة تختصر الدين في بعض شرائعه ومظاهره وطقوسه..

وإنما الورع ذلك السلوك المرتبط بالعلم، فنحن نعبد الله بما شرع، لا بأهوائنا.. ولذلك إن رفع الله تعالى الحرج عنا في الطهارة، فرحنا نبالغ فيها كنا مناقضين لما طلب منا..

الطهارة

يعجبني فيك يا بني حرصك على طهارتك.. فأنت منذ صغرك تلتزم بكل ما تستدعيه النظافة من سلوكات وآداب رفيعة.. وتلك سنة رسول الله ﷺ، فقد كان حريضا على نظافة بدنه وثيابه وفراشه وكل ما يرتبط به، وله في ذلك الأحاديث الكثيرة، والسنن العظيمة، فقد قال في الدعوة لطهارة الفم: (السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب) [1]

وقال في الدعوة للمحافظة على الوضوء، وفي كل الأوقات: (لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن) [2]، وقال: (إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة) [3]

بل إنه اعتبر الوضوء شطرا وجزءا من أجزاء الإيمان، فقال: (الوضوء شطر الإيمان) [4]

ولم يكتف رسول الله ﷺ بذلك، بل دعا إلى تطهير البيئة والمحيط الذي يعيش فيه الإنسان، فقال: (إن الله تعالى طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود؛ فنظفوا أفنيتكم، ولا تشبهوا باليهود) [5]، وقال: (طيبوا ساحاتكم، فإن أنتن الساحات ساحات اليهود) [6]

---

[1] () رواه أحمد، والمروزي (108) و (110) ، وأبو يعلى (109) و (110)

[2] () رواه أحمد (37/ 61)، والبغوي (155)

[3] () رواه البخاري 11 / 97 ، ومسلم رقم (2710)

[4] () رواه مسلم رقم (223) ، والترمذي رقم (3512)

[5] () الترمذي (2799)

وهكذا ترى القرآن الكريم يثني على الطهارة التي يتسم بها المؤمنون، فيقول في وصفهم: { لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ } [التوبة: 108]

ويكفيك من هذه الآية الكريمة حب الله للمتطهرين.. وحب الله أعظم الهدايا، ولا جائزة يجازى عليها الإنسان مثل حب الله له.. وهي مقدمة لكل فضل، وباب لكل خير..

بل إن الله تعالى أمر رسوله ﷺ، وفي أول أيام البعثة بالحرص على طهارة ثيابه، وقرن ذلك بأوامر عظيمة من الدين، فقال: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7)} [المدثر: 1 - 7]

اقرأ هذه الآيات، وتمعن فيها.. وستجد فيها أن الطهارة التي أمر بها الله تعالى ليست طهارة الثياب فقط، بل هي طهارة ترتبط بكل حقائق الإنسان ولطائفه.. فليس طاهرا من اكتفى بتطهير ثيابه، وترك عقله مملوءا بالجهل والدجل والخرافة.

وليس طاهرا من طهر ثيابه، وترك نفسه مملوءة بالحسد والحقد والكبرياء والغرور، وكل العقد النفسية.

وليس طاهرا من طهر ثيابه، وترك قلبه أسيرا في أيدي أهوائه وشهواته تقلبه كيف يشاء، وتجعله طريحا في مستنقعاتها الآسنة.

وليس طاهرا من طهر ثيابه، ثم ترك جوارح روحه ممتلئة بالقاذورات والنجاسات، التي تجعله منبعا للروائح الكريهة المنتنة.

فليس طاهرا من ترك لسانه يعبث في أعراض الناس،

6() رواه الطبراني في الأوسط، كنز العمال (15/ 389)

وينشر الإشاعات بينهم.. ولا من ترك لرجله حرية الحركة لتسير في كل ما يحلو للهوى دعوته إليه.. ولا من ترك ليده حرية البطش لتنفذ مآرب غضبه.

وهكذا.. فإن الطهارة الحقيقية ــ يا بني ــ هي التي تشمل كل شيء.. لا تلك التي تقتصر على تطهير الطلاء والقناع والزجاج الخارجي.. وتترك الحقيقة والباطن مملوءا بكل أنواع القذارة.

ولذلك ربط الله تعالى بين الدعوة لتطهير الثياب، والتطهير من الرجز.. ودعا إلى هجره واجتنابه.. ودعا إلى تكبير الله حتى تزاح تلك الخرافات التي تملأ العقل بالكدورة.. ودعا إلى الصبر حتى تتخلص النفس من آثار العجلة .. ودعا إلى عدم المن حتى لا يساء للعلاقات الاجتماعية، وتمتلئ بما يكدرها.

هذه هي النظرة القرآنية والإيمانية للطهارة.. فهي تنطلق من الجسد والبيوت، والأحياء والشوارع، لكنها لا تكتفي بها.. بل تنتقل إلى باطن الإنسان وحقيقته.. فتملأها بالطهارة والنظافة والجمال.

ولذلك فإن المعجبين بأولئك الذين ينظفون ثيابهم، أو يملؤون شوارعهم بأصناف الزينة، ويغفلون عن تلك الحانات والمراقص ونوادي الرذيلة التي تملأ تلك الأحياء، ينظرون بعين الدجال الواحدة.. فالطهارة مثل الأخلاق جميعا لا تنقسم، فمن طهر بعضه، وأعرض عن تطهير الباقي كان نجسا وقذرا.

تصور لو أنك دخلت بيت أحدهم، فوجدت غرفة الاستقبال طاهرة نظيفة.. لكنك عندما مررت على غيرها، شممت كل أنواع الروائح المنتنة، هل يمكنك بعد ذلك أن تصف صاحب البيت بالطهارة والنظافة؟

هكذا الأمر ببيوتنا التي نسكنها.. وهي حقائقنا ولطائفنا.. فمن نظف جسده وثيابه، ثم ترك قلبه وعقله

ونفسه أسيرة لتلك القاذورات الحاجبة عن الله .. كان حريا بأن يوصف بالنجاسة، حتى لو امتلأ ظاهره بالنظافة.

لقد ذكر القرآن الكريم ذلك، وصرح به، وأخبر أن كل ما يحول بين العقل ومعرفة الله نجاسة ورجس، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ } [التوبة: 28]، وقال: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: 125]، وقال: { وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } [التوبة: 125]

واعتبر أن كل المعاصي التي أمر الله باجتنابها، لم يأمر بذلك إلا بسبب كونها نجاسة ورجس وقذارة، فقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون} [المائدة: 90]

لذلك لا تكتفي يا بني بالنظر إلى الظواهر، فتعمى عن رؤية الحقيقة الكاملة.. بل انظر إلى الأشياء من جميع جهاتها.. وقل لأولئك المتنورين الذين ملأوا قلوبهم انبهارا بالشرق والغرب: لا تنظروا إلى تلك الشوارع النظيفة.. ولا إلى تلك الأجساد الطاهرة.. بل انظروا معها إلى تلك العقول الممتلئة بالشبهات، والمعرضة عن الحقيقة.. وانظروا إلى تلك النفوس التي كانت سببا في يوم من الأيام في الاستعمار والتسلط والأحقاد.. وانظروا إلى تلك الشوارع المملوءة بالصور الحاضة على الفواحش والمنكرات.. وانظروا إلى كل ما يملأ تلك الشوارع مما يغضب الله.

واعلم يا بني أن أكثر تلك الشوارع التي يدعو من يزعمون لأنفسهم التنوير إلى الاقتداء بها، لا تختلف عن شوارع قوم لوط، أولئك الذين وصفهم الله بالرجس والنجاسة، لأن عقولهم وقلوبهم ونفوسهم، كانت كذلك، ولذلك أنفوا من أن يتبعوا لوطا عليه السلام، ودافعهم لذلك هو ما عبروا عنه بقولهم: {أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ

يَتَطَهَّرُونَ} [الأعراف: 82]

إياك يا بـني أن تنخـدع بتلـك الـدعاوى الـتي ينشـرونها.. فالعزة لله وحده.. ولا عـزة ولا كرامـة ولا شـرف ولا نبـل إلا لمن عرف الله، وسلك الطريق إليه..

لقد ذكر الله تعالى ذلك بصيغة مؤكدة محكمـة لا مجـال لتأويلها أو التلاعب بألفاظها، فقـد قـال في كلماتـه المقدسـة التي لا يعتريها التبـديل والتغيـير: {مَنْ كَـانَ يُرِيـدُ الْعِـزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر: 10]

فالعزة مكرمة إلهية، وهي من تجليات اسم الله العزيز، ولا يهبهـا إلا لمن تـوفر فيـه الإيمـان واليقين والطهـارة والصدق.. ولذلك رد على المنافقين الذين قالوا: { لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَـةِ لَيُخْـرِجَنَّ الْأَعَـزُّ مِنْهَـا الْأَذَلَّ } [المنـافقون: 8] بقوله: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُـولِهِ وَلِلْمُـؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَـافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ } [المنافقون: 8]

فـالعزة للـه وحـده، وهي في خزائنـه الـتي لا يملـك مفاتيحها غيره، وهو قد كتبها لمن انتسب إليه بقدر انتسـابه.. فيستحيل على من عارض الله، أو تحداه، أو جحـده، أو غفـل عنه، أن ينال هذا الوسام الرفيع.

ولـذلك يكتشـف كـل من طلب العـزة من غـير طَرقـه لأبواب الله أن الذلة مصيره ونهايته المحتومة.. فمن عز بغير الله ذل.. ومن استنصر بغير الله هزم.

لقـد أشـار إلى ذلـك القـرآن الكـريم عنـد حديثـه عن السـحرة، وكيـف كـانوا يسـتعزون بفرعـون، ثم عرفـوا أن فرعون أذل من أن يستعز بـه أحـد.. فلجـأوا إلى اللـه.. لقـد قال تعالى يـذكر قصـتهم: {فَـأَلْقَوْا حِبَـالَهُمْ وَعِصِـيَّهُمْ وَقَـالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ } [الشعراء: 44]

لكن موسى عليه السلام الذي استند إلى عزة الله ألقى

{عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ } [الشعراء: 45]، حينها عرف السحرة أن سند موسى عليه السلام أكبر من سندهم، فراحوا يجثون ساجدين، وهم يرددون: { آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [الشعراء: 47، 48]

حاول فرعون حينها أن يستعمل بطشه الذي تعود أن يذل به رعيته، لكنه فوجئ بتلك الأنوف الشامخة، والجباه المرتفعة، والنفوس الأبية.. لقد قالوا جميعا، وبصوت واحد، وبعزة نادرة: {لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ } [الشعراء: 50، 51]

وفي مقابل هذا، ينبئنا الله تعالى عن الذلة التي تنتظر كل من استند إلى عز غير عزه، فقد قال عن المنافقين: {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء: 138]، ثم وصفهم بقوله: {الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا } [النساء: 139]

إن هذه الآية الكريمة تصف بدقة من ذكرتهم لي يا بني من أولئك الذين راحوا يحذفون الإيمان عند تقييمهم الإنسان.. فصار الملحد عندهم أفضل من المؤمن.. والغني أفضل من الفقير.. والمترف أفضل من الزاهد..

وصار تقييمهم للشعوب والدول على أساس ثرواتها وأموالها وأسلحتها وتطورها.. لا على أساس أخلاقها وقيمها.

وصار حلم أحدهم أن يظفر بالتأشيرة التي تنقله لتلك البلاد التي يراها عزيزة، ليصور نفسه في ساحاتها وشوارعها، ثم يرسل صوره لأهل بلده الذين يحتقرهم، وكأنه في الجنة، وهم في الجحيم.

لقد أخبر الله تعالى أن هذا الصنف من المنهزمين نفسيا، وأنهم وإن عزوا في ظاهرهم إلا أن باطنهم مملوء بالذلة والخضوع والهوان.. ولهذا يتوهمون أن الغلبة دائما

لأهل الباطل.. وأن سوق أهل الحق لن تقوم أبدا.

وفي مقابل ذلك أثنى الله تعالى على الذين نالوا حظهم من العـزة الإلهيـة، فقـال عنهم، وهم في أشـد أنـواع البلاء: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَـدْ جَمَعُـوا لَكُمْ فَاخْشَـوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْـبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيـلُ} [آل عمـران: 173]

وقـد بين اللـه تعـالى الجـزاء الـذي أعـده لهم بسـبب ركونهم إلى الله، فقال: {فَـانْقَلَبُوا بِنِعْمَـةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْـلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُـوءٌ وَاتَّبَعُـوا رِضْـوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْـلٍ عَظِيم} [آل عمران: 174]

ثم بين أن تلك الذلة التي تعتري أولئك الـذين يخضـعون أمام الأقوياء، وينحنـون أمـام المسـتكبرين ليسـت إلا أوهامـا شـيطانية، فقـال: {إِنَّمَـا ذَلِكُمُ الشَّـيْطَانُ يُخَـوِّفُ أَوْلِيَـاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [آل عمران: 175]

ولذلك، فإن العزة ـ يا بني ـ لا تكـون إلا لمن اقتنـع بـأن الله أكبر من كل شيء.. وردد ذلك بقلبه ولسانه.. ليمحو كـل أدعياء الكبر والتعالي.. ويتحولـوا أمامـه إلى مجـرد أصـفار لا قيمة لها.. وهل يمكن لشيء أن يقوم أمام الله؟

لقد كان الإمام الحسين ينظر بهذه النظـرة عنـدما وجـد نفسه وحيدا إلا مع فئة قليلة من المؤمنين.. وقـد دعي حينهـا إلى التسليم للطواغيت، لينال حظه من الدنيا، لكنه آثر البقاء على العهد.. واختار الله.. فأكسبه الله عز الأبد..

لقد قال يعبر عن نفسـه والاختيـارات الـتي وضـعت بين يديـه: (ألا وإنّ الـدّعي ابن الـدّعي قـد ركـز بين اثنـتين: بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة، يأبى الله لنا ذلـك ورسـوله، ونفـوسٌ أبيّـة وأنـوفٌ حميّـة مِنْ أنْ نـؤثرَ طاعـة اللئـام على مصارع الكرام) (1)

(1) بحار الأنوار 83:45.

وقال مخاطبا أولئك الجبناء الذين قعدوا عن مواجهة الباطل، واستسلموا للدنيا وأهوائها: (إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها، واستمرت جدا ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون إلى الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء ربه حقا حقا، فاني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برما، وإن الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معايشهم، فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون) [1]

هذا هو سيد شباب أهل الجنة.. وهذا هو أسوة الصالحين الذين لا ترهبهم الجحافل ولا الجيوش ولا القوى العظمى، ولا القوى الصغرى.. ولا يخافون لومة لائم عند قولهم للحق، وصدعهم به.

وهذه العزة الحقيقية يا بني.. وكل من استعز بغيرها ذل.. فلذلك لا تنحني أمام المتكبرين.. ولا تذل نفسك للمترفين.. فإن ربك هو الأكبر.. ولن يزيدك تملقك وتذللك لهم إلا مهانة.. ولن يذيقوك بإهانتك لنفسك بين أيديهم إلا ألوان الخسف والذلة.

أما أولئك الذين يذكرون أنهم يتواضعون بذلك، فهم واهمون، وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: (من تواضع لغني لأجل غناه ذهب ثلثا دينه) [2]

وروي أن بعضهم سئل عن التواضع، فقال: (هو التكبر على المتكبرين)

وروي أن سليمان بن عبد الملك أتى طاووساً فلم يكلمه فقيل له في ذلك، فقال: (أردت أن يعلم أن في عباد

[1] () تاريخ الطبري 3: 307.

[2] () رواه البيهقي في الشعب المقاصد الحسنة (ص: 639)

الله من يستصغر ما يستعظم ذلك من نفسه)

وقال الشاعر معبرا عن هذا المعنى:

إذا تاه الصديق	فته كبراً على ذاك
فإيجاب الحقوق	حقوقك رأس تضييع

فاحـذر يـا بـني أن تـذل نفسـك، أو تتـوهم أن من كـثر ماله، أو جاهه، أو سلطانه، أفضل منك.. فالفضـل في عبـادة الله وتقواه ومعرفتـه.. وليس في تلـك الشـؤون الـتي تـزول بزوال الحياة الدنيا، بل قد تزول قبلها.

وإن شـئت أن تـذل نفسـك لأحـد، فاجعلهـا ذليلـة أمـام أولئك الطيبين الصادقين المتواضـعين الـذين لا تزيـدك ذلتـك لهم إلا عـزة وكرامـة وشـرفا.. لقـد ذكـر اللـه تعـالى ذلـك، ودعاك إليه، فقال في وصف المؤمنين: {يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا مَنْ يَرْتَـدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَسَـوْفَ يَـأْتِي اللَّهُ بِقَـوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ أَعِـزَّةٍ عَلَى الْكَـافِرِينَ يُجَاهِـدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة: 54]

فـأنت حين تـذل لهم تـذل لربـك.. لأنـك لم تـذل لهم لـذواتهم، وإنمـا لإيمـانهم وتقـواهم وصـلاحهم، فلـذلك كـان تواضعك لهم، تواضعا وذلـة للـه.. ومن ذل للـه ملأه بـالعزة.. ومن تواضع لله ملأه بالكرامة.

الذلة

أعلم ـ يا بني ـ أنك كنت تنوي أن تسألني عن سر اعتبار الذلة وصفا من أوصاف المؤمنين، مع كونها ـ حسب ما يبـدو ـ وصفا قبيحا لا يليق بالمؤمن، ولا غير المؤمن.

وسأجيبك على ذلك، لا وفق ما يريده عقلك وعقول كل الناس فقط، بل وفق ما تريده الحقيقة نفسها.

فالذلة يا بني ليست وصفا قبيحا مطلقا، وإنما قبحها يرتبط بالجهة التي وجهت لها.. فإن وضعت في محلها الصحيح، واستقبلت بها الجهة التي هي أهلها كانت وصفا صحيحا سليما، بل وصفا كريما طيبا، يميز الصالحين عن غيرهم.

ذلك أنها تدل في أصل وضعها على الخضوع والاستكانة واللّين، والذي قد يكون بسيطا قاصرا، فيسمى تواضعا، وقد يزيد إلى درجات عالية، فيسمى ذلة، أو قد يراه الناس كذلك.

وهي بهذا الوصف لا تمدح، ولا تذم، ولكن ينظر إلى الجهة التي صرفت إليها تلك الاستكانة واللين، فإن كانت جديرة بذلك كان الوصف مدحا، وإن وجهت لغير أهلها كان الوصف ذما.

وحتى أقرّب لك هذا أعود إلى اللغة نفسها، والتي استعملت هذه الكلمة للدلالة على الحس والمعنى.. فهم يذكرون أن الأرض العزيزة هي الأرض الصّلبة الشّديدة، والأرض الذليلة هي الأرض اللينة السهلة[1].

وأنت ترى أن الوصف المرتبط بكلا الأرضين لا يحمل مدحا ولا ذما.. ذلك أن الأرض الصلبة نحتاج إليها لبناء المساكن القوية، أو الطرق الصالحة، أو غيرها.. والأرض

[1] مقاييس اللغة (2/ 345)

الذليلة نحتاج إليها في الزراعة.. فلولا ذلها ما قبلت الزرع، ولا أنبتته.

ولهذا ذكر الله تعالى أن من نعمه على خلقه تذليل ما يحتاجونه من مرافق ليبسر لهم التعامل معها، فقد قال تعالى عن الأنعام، وتذليلها في مصلحة الإنسان: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ} [يس: 71 - 73]

فهذه الآيات الكريمة تشير إلى أن الله تعالى كان قادرا على أن يجعل كل الحيوانات صاحبة عزة وأنفة كالأسود والنمور وغيرها من الحيوانات المتوحشة، لكنه رحم عباده بتلك الحيوانات الأليفة الذليلة لهم، ليتمكنوا من الاستفادة منها.

وهكذا وصف الله تعالى فاكهة الجنة ونعيمها بتذليله لأهلها ، فقال: {وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا} [الإنسان: 14]، وهذا يعني أن توفر النعمة وحدها لا يكفي، ما لم تكن مذللة ميسرة يمكن الحصول عليها.

ولهذا فإن الله تعالى عندما أمر الأبناء بمقابلة رحمة الوالدين وتضحيتهما بالذل، كان يقصد هذا المعنى، فقد قال تعالى: { وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا } [الإسراء: 24]

ذلك أن الوالدين لا يمكن أن يربيا أو يوجها أو يعطيا ثمرة تجاربهما للأولاد إلا بعد أن يكون فيهم من اليسر والسهولة والتواضع والاستكانة ما يتمكنون به من ذلك.. ولذلك كان الذل لهما في محله الصحيح.. فهم لا يستثمرون تلك الذلة إلا في مصلحة الأولاد، بحكم الفطرة التي فطروا عليها.

وهكذا كانت الذلة للمعلم والأستاذ والمربي، في محلها الصحيح، لأنها تعطيه الفرصة لأن يلقي ثمرة علومه لتلميذه،

وقد أشار إلى ذلك ابن عباس، فقال: (ذللت طالبا، فعززت مطلوبا)[1]

وأشار إلى ذلك الشاعر بقوله:

العلم حرب للفتى المتعالي كالسيل حرب للمكان العالي

بل أشار إلى ذلك القرآن الكريم عندما أخبر أن حقائق العلم لا تصل إلا لمن توفرت فيهم هذه الصفة، فقال: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ } [ق: 37]

ولذلك، فإن أولئك المعترضين المجادلين الذين يقابلون الحقائق بالتكبر، لن ينالوا شيئا منها، فالحقائق عزيزة، ولا يستقبلها إلا من كان فيهم من اللين والسهولة ما ييسر تلقيها وقبولها.

لقد أشار الله تعالى إلى ذلك، وبين سببه، فقال: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (205) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ} [البقرة: 204 - 206]

فالله تعالى ذكر في هذه الآيات السبب في فساد هذا المستكبر.. وهو تكبره على الحق، واستعلاؤه على الناصحين، بل استعلاؤه على الله.. ولذلك كانت عاقبته هي الهوان العظيم والذلة الكبرى.

وفي مقابل هذا العتل الجواظ المستكبر وصف الله المؤمنين بالذلة بعضهم لبعض، ذلك أنهم لا يحملون في قلوبهم أي كبر أو استعلاء، بل يلينون للحق وأهله، قال

[1] إحياء علوم الدين (1/ 9)

تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة: 54]

ولذلك كانت الذلة لله أعظم صفات المؤمنين، وهي أشرف مراتبهم وأكرمها.. فالله تعالى هو الرحيم اللطيف بعباده.. ولذلك كانت الذلة له السبيل الوحيد لاجتناء ثمار أسمائه الحسنى.

فالذي يظهر بمظهر الفقر لله، ستمطر عليه صدقات الله التي لا حدود لها.. كما قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: 15]

والذي لا يفعل ذلك، ويظهر بمظهر المستغني عن الله، فإن الله تعالى لن يمن عليه من فضله، وكيف يمن عليه، وهو من حرم نفسه من التعرض لصدقات الله، قال تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ} [التوبة: 60]

ولهذا أمرنا الله تعالى بالرجوع إليه كل حين، وأخبر أنه ينزل علينا من البلاء ما يجعلنا نحتاج إلى ذلك التضرع والتذلل بين يديه، قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: 42، 43]

فهاتان الآيتان الكريمتان تبينان عواقب المستكبرين على الله، أولئك الذي استقبلوا أمواج البلاء بالتعنت، لا بالتضرع، ولذلك كان جزاؤهم مضاعفة البلاء، والوقوع في الذلة للخلق الذين يسومونهم الخسف.

وقد ضرب الله تعالى المثال على ذلك باليهود الذي أنفوا من أن يذلوا لله، فوقعوا في الذلة لخلقه، قال تعالى: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْـرِ حَـقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [آل عمران: 112]

فهؤلاء الذين استكبروا على الله وعلى أنبيائه، بل راحوا يقتلونهم، عوقبوا من جنس عملهم، حيث ضربت عليهم الذلة والهوان، والتعرض لكل أصناف القتل والتشريد.

وضرب مثالا آخر لهم عن ذلك العز الذي وفره اللــه في فـترة تيههم، لكنهم راحـوا يتكـبرون عنـه، فعوقبـوا بـالهوان والذلة، قال تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِـدٍ فَـادْعُ لَنَـا رَبَّكَ يُخْـرِجْ لَنَـا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَـا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْـرٌ اهْبِطُـوا مِصْـرًا فَـإِنَّ لَكُمْ مَـا سَـأَلْتُمْ وَضُـرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَـوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } [البقرة: 61]

وهكذا ذكر عاقبة تكبرهم على عبادة الله، وســوء ظنهم بـه، والـذي جعلهم يـذلون لعبـادة العجـل، قـال تعـالى: { إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ} [الأعراف: 152]

وهكذا، فإن عقوبة كـل من يعـرض عن التـذلل للـه، أن يذل لغيره.. وأن يسقيه ذلك الغـير كـل أصـناف الهـوان، في مقابل تلك العزة التي يكرم الله بها من ذل لـه.. فالـذل للـه عز.. والتكبر على الله ذل.

لقد ذكر الله تعـالى ذلـك، وبين المنـازل العظيمـة الـتي ينالها أولئك الذين لانوا لله، وسلموا له، واسـتكانوا بين يديـه، وقضوا حياتهم أذلة على بابه، فقال: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَـقُ وُجُـوهَهُمْ قَتَـرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْـحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [يونس: 26]

وفي مقـابلهم ذكـر أولئـك الـذين أبـوا السـجود للــه، واعتـبروه ذلـة لا تليـق بمقـامهم، ولا بعـزتهم، ولا بكـرامتهم،

فعاشوا حياتهم ممتلئين بالذلة، ثم انتهوا إلى المصير الذين يصير إليه كل المستكبرين على الله، قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [يونس: 27]

ووصف خروجهم إلى المعاد، وإلى الدار الأبدية، فقال: {يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (43) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} [المعارج: 43، 44]

ووصف عدم قدرتهم على السجود لله في تلك المواقف بعد أن استكبروا على السجود له في الدنيا، فقال: { يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ} [القلم: 42- 43]

ولهذا كله تحتاج يا بني للتفريق بين الذلة المحمودة، وهي الذلة للحق وأهله.. والذلة المذمومة، وهي الذلة للباطل وأهله.. فمن ذل للحق عز، وارتقى إلى كل منابر الكمال والجمال والعلو.. ومن ذل للباطل أذاقه الباطل الذي ذل له كل ألوان الهوان في الدنيا والآخر وفي حياته جميعا.

هل رأيت ـ يا بني ـ ذلك الطبيب الذي يمسك بيده السيجارة، وهو يحذر الناس من التدخين، أو ذلك الذي يكتب الدراسات العلمية عن أضرار الكحول، في نفس الوقت الذي لا يستطيع أن يكف نفسه عن تناوله؟

هكذا الأمر بالنسبة للشقاء.. فهو مكروه عند الجميع.. ولا أحد إلا ويتصور أنه ينفر منه، ويستعمل كل الوسائل حتى لا يصبح في زمرة الأشقياء.. لكن النفرة النفسية، أو التعبير عنها شيء، والواقع شيء آخر..

فأكثر من ينفرون من الشقاوة، أو يزعمون لأنفسهم أنهم لا يريدونها، تجدهم يضحون بكل شيء في سبيلها، بل يبذلون كل أموالهم وعرقهم ودمائهم في سبيل تحصيلها.

هم يفعلون مثل ذلك المدمن والمدخن تماما.. فالنفرة النفسية، والكلام الدال عليها، والفلسفة المرتبطة بها شيء.. والواقع شيء آخر.

أتدري ما سبب ذلك يا بني.. إنه يعود لأمرين.. كلاهما من الضرورات التي لا ينجو من الشقاوة إلا من تعلم علمهما.

أما **أولهما**.. فالعلم بحقيقة الشقاوة، ومصدرها، ومجالاتها.. فلا يفر من الشقاوة، من لا يعرفها.. لأنها قد تتزين أحيانا بملابس السعادة، ثم تخدع من ينبهر بصورتها، لتسقيه سمومها.

هي تفعل تماما مثلما فعل إبليس حين راح يزين لآدم عليه السلام الأكل من الشجرة، مع العلم أنها الشجرة الوحيدة التي قد يشقى من أكل منها.. أما سائر الأشجار، فكانت كل ثمارها نافعة صالحة.

لقد قال له الشيطان، وهو يدعوه للأكل منها: { يَا آدَمُ

هَـلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَـجَرَةِ الْخُلْـدِ وَمُلْـكٍ لَا يَبْلَى} [طـه: 120]، {وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} [الأعراف: 21]

لكنهمـا بمجـرد أن أكلا من الشـجرة الـتي توهمـا أنهـا شـجرة السـعادة علمـا بمقـدار الغـرور الـذي حصـل لهمـا.. فالشجرة لم تكن شجرة سعادة.. ولو كانت كذلك مـا نهاهمـا الله عنها، وإنما كانت شجرة تُعري كل من أكل منها، وتجعلـه غير جدير بتلك الجنان، ولا بالنعيم الذي وفر فيها.

لقد أكلا منها على الرغم من التحذير الصريح الـوارد من الحضرة المقدسة، فقـد قـال اللـه تعـالى لآدم عليـه السـلام ناصحا: { يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَـكَ وَلِزَوْجِـكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَـا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُـوعَ فِيهَـا وَلَا تَعْـرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى} [طه: 117 - 119]

لكنــه في غمــرة الغفلــة عن هــذه النصــيحة الإلهيــة، والمعارف المرتبطة بهـا وقـع في المعلومـات الخاطئـة الـتي ســربها لــه الشــيطان، والــتي جعلتــه يعطي الشــجرة من الأوصاف ما لم يكن لها.

هذه القصة يا بني تتكـرر كـل حين.. ومـع كـل النـاس.. ومع كل التعاليم الإلهية.. فالله تعـالى الـذي اختـبر آدم عليـه السـلام بتلـك الشـجرة، اختبرنـا بأشـجار كثـيرة نهانـا عنهـا، وحـذرنا من الاقـتراب منهـا، وبين العـواقب الخطـيرة الـتي تنتظر من يفعل ذلك.

لذلك كان العلم بتلك الأشجار، وتصحيح المفاهيم حولها، هو الأساس الـذي لا يمكن أن ينجـو من الشـقاوة إلا من بـدأ به، واهتم له.

فالكثير من الأشجار المنهي عنهـا اختلطت مـع الأشـجار المباحة، أو المرغّب فيها؛ فأصبح المعـروف منكـرا، والمنكـر معروفا، بفعل التلبيسات الإبليسية، والأوهام الشيطانية الـتي وسوس بها للبشر كما وسوس بها من قبل لأبيهم.

لذلك كان الرجوع لكلمات الله المقدسة، والبحث فيها، وفي القيم التي جاءت بها، هو الأساس الذي يفرق بين الحق والباطل، والخير والشر، والأشجار المنهي عنها، والأشجار المباحة أو المرغب فيها.

والوصول إلى التحقيق في ذلك يستدعي تطهير أرض النفس، حتى لا تختلط عليها إلهامات الملائكة بوساوس الشياطين.. فلا يمكن أن يهتدي للحق من عبد نفسه وعقله وهواه، ولم يسلم لربه، ولم يكن خاضعا له وللحقائق، يستقبلها من غير جدال، ولا صراع.

والأمر في ذلك ــ يا بني ــ يسير .. ولا يحتاج إلا إلى الصدق.. فالله تعالى نصب في كل عصر من يقوم له بالحجة، ويدل على الحقيقة، ويمثلها.. فمن رغب عنهم ضل، ومن اتبع غيرهم شقي باتباعه.

ويوم القيامة لا ينفعه تبرؤه ممن دعاه للشقاوة، كما لا ينفع من وقع في الإدمان اتهامه لمن سقاه الكأس الأولى.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ } [البقرة: 166، 167]

والوهم الذي يستعمله الشيطان وأتباعه لصرف الناس عن الحق، إيهامهم لهم أن الشقاوة في الحق، والسعادة في الباطل.. وهذا كله وهم.. فالله تعالى ما أنزل علينا شريعته لنشقى، وإنما أنزلها لنسعد.. قال تعالى: {طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} [طه: 1، 2]

بل أخبر القرآن الكريم أن الله كتب السعادة في الدنيا والآخرة لمن اتبع الحق، قال تعالى: { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: 97]

هذا هو السبب الأول ـ يا بني ـ للنفور من الشقاء، وهو العلم بأسبابه ومسالكه وسدنته.. حتى لا تختلط المسالك، فيسير النافر من الشقاء مع الأشقياء، ويحشر معهم، لتجانس صفاته مع صفاتهم.. ولذلك فإن علامة السعادة هي الكون مع السعداء الذين { أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا } [النساء: 69]، وعلامة الشقاوة هي الكون مع الأشقياء، كما قال تعالى عن ذلك الذي يصيح في النار بسبب أصدقائه وقرنائه: { يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا } [الفرقان: 28، 29]

أما الأمر الثاني، وهو لا يقل عن الأول.. فهو العمل بالعلم، والخضوع له، وتسليم كل الجوارح واللطائف لمقتضياته.. فلا ينتفع بالدواء من اكتفى بقراءة مركباته وآثاره، دون أن يتيح له الفرصة للتغلغل بين خلاياه للقضاء على أدوائه.

وهكذا الدين.. فهو ليس علما فقط.. بل هو علم مع عمل.. ولا يمكن للعمل أن يتم من دون علم.. ولا يمكن للعلم أن يثمر من دون عمل.. وإلا أصبح الإنسان مثل ذلك الطبيب الذي يحذر من الإدمان، وهو مدمن.. لأنه لم يستطع أن يحول من معلوماته إلى أدوية يشربها، لتتغلغل في كل خلايا ذاته.

والعمل بالعلم ـ يا بني ـ لا يحتاج منك سوى الصدق مع الله.. فالله هو الذي يلهمك بأن تعمل، ويقويك على العمل، عندما يراك صادقا مع الحق، ومسلما له، ومتهما نفسك الأمارة بالسوء.

ولذلك سعد آدم بعد خروجه من الجنة، وعادت إليه تلك السكينة التي غادرته بعد الأكل من الشجرة، ذلك أنه راح يتهم نفسه بالتقصير، وراح يسأل الله أن يمنحه الفرص الجديدة حتى يصحح ما وقع فيه من أخطاء.. لقد ذكر الله

تعالى ذلك، فقال حاكيا قوله: {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: 23]

وهذه الكلمة هي دليل السعداء.. فالسعيد من لم يــركن إلى نفسه، ولم يتوان معها، بـل تـراه دائمـا ينفـر من هواهـا، ومن الوساوس التي يلقيها الشيطان عبرها..

وهو عندما يفعل ذلـك، ينظـر اللـه إليـه بنظـر الرحمـة، ويزكي روحه، وتكون تزكية روحه مقدمة لقدرته على التحكم في نفسه، وفي أهوائها.. وقد علمنا رسول اللـه ﷺ أن نقـول في الـدعاء: (اللهم آت نفسـي تقواهـا، وزكهـا أنت خـير من زكاها، أنت وليها ومولاها) [1]

وعلمنا حفيده الإمام زين العابدين أن نقول مبتهلين هذا الدعاء الرقيق الذي يشكو فيـه الإمـام من التقصـير في حـق الله: (إلهي مالي كلما قلت: قد صلحت سريرتي، وقـرب من مجـالس التـوابين مجلسـي، عرضـت لي بليـة أزالت قـدمي، وحالت بيني وبين خدمتك.. سيدي لعلـك عن بابـك طردتـني، وعن خــدمتك نحيتــني، أو لعلــك رأيتــني مســتخفا بحقــك فأقصيتني، أو لعلـك رأيتـني معرضـا عنـك فقليتـني، أو لعلـك وجدتني في مقام الكـاذبين فرفضـتني، أو لعلـك رأيتـني غـير شــاكر لنعمائــك فحرمتــني، أو لعلــك فقــدتني من مجــالس العلماء فخذلتني، أو لعلك رأيتـني في الغـافلين فمن رحمتـك آيستني، أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطالين فبيــني وبينهم خليتني، أو لعلك لم تحب أن تسمع دعائي فباعدتني، أو لعلك بجرمي وجريرتي كافيتني، أو لعلك بقلة حيائي منك جازيتني) [2]

وبعد أن علمنا كيف نشكو لله تقصيرنا في حقه، وحزننـا بســبب ذلــك، علمنــا أن نطلب منــه أن يــدلنا على الهدايــة

---

[1] رواه مسلم (2722)

[2] إقبال الأعمال: 1/165.

لسبيله، حتى لا يسلب دعاة الشقاوة الإيمان والهداية من قلوبنا، فقال: (إلهي أنت أوسع فضلا وأعظم حلما من أن تقايسني بعملي، أو أن تستزلني بخطيئتي، وما أنا يا سيدي وما خطري، هبني بفضلك يا سيدي، وتصدق علي بعفوك وجللني بسترك، واعف عن توبيخي بكرم وجهك.. سيدي أنا الصغير الذي ربيته، وأنا الجاهل الذي علمته، وأنا الضال الذي هديته، وأنا الوضيع الذي رفعته، وأنا الخائف الذي آمنته، والجائع الذي أشبعته، والعطشان الذي أرويته، والعاري الذي كسوته، والفقير الذي أغنيته، والضعيف الذي قويته، والذليل الذي أعززته، والسقيم الذي شفيته، والسائل الذي أعطيته، والمذنب الذي سترته، والخاطئ الذي أقلته، والقليل الذي كثرته، والمستضعف الذي نصرته، والطريد الذي آويته، فلك الحمد)

إلى آخر الدعاء الذي يعلمنا كيف نلجأ إلى الله.. فلا ينجينا من الشقاوة، ومن دعاتها الكثيرين إلا اللجوء إلى الله، والتضرع إليه، حتى تخنس عنا الشياطين التي لا تتوقف عن بث سمومها في نفوسنا الأمارة بالسوء.

لا يمكن ـ يا بني ـ للحكيم أن يكون حكيما، وهو لا يعرف السعادة، ولا حقيقتها، ولا كيفيـة الحصـول عليهـا.. فالسـعادة هي الغاية العظمى التي من قصر في معرفتها، أو تـاه عنهـا، ابتلي بالشقاء، وعاش محروما من أفضـل مـا خلـق اللـه من النعم على عباده.

ولذلك كان العلم بها ليس مستحبا ولا فرضا فقـط.. بـل كان من الضرورات التي تمـيز العقلاء عن غـيرهم.. فالعاقـل هـو الـذي يبحث عن السـعادة في محلهـا الصـحيح، حـتى لا تسلبه الشياطين عن نفسه؛ فتسقيه السموم المغلفة بغلاف السعادة، فيعيش شقيا، وإن ظن أو توهم أنه سعيد.

فـالأمر في ذلـك يشـبه تلـك المخـدرات الـتي يتناولهـا المدمن عليها؛ فيشعر للحظات بنشوتها ولذتها، ويعيش بعض السعادة بتلك النشوة، لكن سمومها سـرعان مـا ترتـد عليـه، فيتحول إلى شقاء عظيم لا يكاد يفلت منه إلا بتزويد جرعـات السم.. وتزويد جرعات الشقاء.

والأمر يا بني ليس قاصرا على المخدرات.. بل على كل الــذنوب والمعاصــي الــتي لا دور لهــا ســوى حجب حقيقــة الإنســان عن قبلــة الســعادة الأبديــة.. فيعيش بعض لحظـات الوهم، ثم يشقى بعده الشقاء الذي لا يمكن لذاته تحمله.

وحتى تستوعب هذا ـ يا بني ـ فاعلم أن حقيقة الإنســان هي روحه، لا جسـده، فاللـه مـا خلـق لنـا هـذا الجسـد الـذي نعيش بــه على هــذه الأرض إلا لفــترة محــدودة، ولضــرورة الابتلاء، فلذلك كان معرّضا لكل ألوان البلاء والفساد.. ونهايـة البلاء هي تحوله إلى حالة لا يصلح معها لاستعمال الروح لـه.. وحينها يعود الإنسان من جديد إلى حقيقته المجردة.

فـإن انشـغل الإنسـان بهـذا الجسـد، وراح يعطيـه كـل همومــه، ويقضــي لــه كــل مآربــه، وتــاه عن روحــه، وعن

متطلباتها، شعر بألوان من المشاعر.. بعضها يشبه النشوة الوقتية المحدودة التي قد يسميها سعادة.. وبعضها الآخر يشبه الألم العظيم، والوحشة الشديدة التي يحاول سترها بالمزيد من جرعات النشوة المحدودة.

أما الأولى، فسبب لذتها ونشوتها هو كون السموم التي يتجرعها صاحبها ليست سموما مجردة، وإنما هي سموم تشبه السم المختلط بالعسل.. فهو ـ عند تناوله ـ لذيذ مثله مثل سائر العسل.. لكن عمله في الجسم لا يختلف عن عمل السموم..

وقد عبر القرآن الكريم عن تلك النشوة بكونها مجرد تزيين لضرورة الابتلاء، فمن انشغل بالتزيين والنشوة المرتبطة به سقط في بحر الشقاء، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ } [النمل: 4]، ثم بين المصير الذي يصيرون إليه بعد زوال ذلك التزيين ونشوته، فقال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ} [النمل: 5]

وسر ذلك يعود إلى أن أولئك الذي شقوا بعد سعادتهم، عاشوا حياتهم يطعمون أجسادهم، ويغفلون عن أرواحهم، ولذلك عندما تزول أجسادهم عنهم، ومعها كل تلك الارتباطات التي عقدوها مع البيئة التي عاشوا فيها، يشعرون بالشقاء والألم، لأنهم يقدمون على عالم جديد، لم يهيئوا له أنفسهم.

وأما الثانية.. فسببها أنه عند انطفاء تلك اللذة الوقتية، وعودة الإنسان إلى حقيقته، يشعر أن ما كان يتوهمه من سعادة، لم يكن حقيقة، وإنما كان سرابا، أو كذبة كبيرة كذبها على نفسه، أو خدعة كبيرة وقع فيها.

وهنا يفترق العقلاء.. فالذين يدركون ذلك، يتركون الأوهام والسراب، ويبحثون عن الحقائق.. وأما غيرهم، وما أكثرهم، فيذهبون إلى السراب يستزيدون منه، وهم يتوهمون

أنه قد يتحول إلى ماء.. ولن يتحول أبدا.

أظن أنك تطلب مني ما تعودت أن تطلبه من ضرب الأمثلة، ولك ذلك..

ولعل أحسن الأمثلة على ذلك، عالم جليل عاش في قرون سابقة، وأتيحت له كل أسباب الجاه والسلطان، وفي وقت مبكر من عمره.. لكنه شعر بعد فترة أن هذا الطريق، وإن كان لذيذا، لكن لذته وقتية ومحدودة، وقد تنتهي به إلى الشقاء الأبدي؛ فلذلك راح يستعمل كل الوسائل في الحصول على السعادة الحقيقية إلى أن وجدها.

لقد عبر عن نفسه، فقال: (كان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله، قطع علاقة القلب عن الدنيا، بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى. وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق. ثم لاحظت أحوالي، فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من الجوانب، ولاحظت أعمالي - وأحسنها التدريس والتعليم - فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة، ولا نافعة في طريق الآخرة.. ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أني على شفا جرف هار، وأني قد أشفيت على النار، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال) [1]

وبعد ذلك التفكير قرر بأن يسلك السبيل الذي تطلبه السعادة الحقيقية، ولو بالتخلي عن السبل التي تحققها السعادة الوهمية، وقد حقق الله له ما أراد، فوصل إلى كل ما يبتغيه من تلك السعادة، ولم يخسر معها تلك السعادة المحدودة المؤقتة، لأن الله تعالى بكرمه، يعوض عباده كل ما تركه من أجله.

---

[1] () المنقذ من الضلال (ص: 173)

وهكذا يا بني فعل أولئك السحرة الذين ذكـرهم القـرآن الكريم؛ فقـد كـانوا يعيشـون في بلاط فرعـون منعمين بكـل أنـواع النعيم الحسـي، لكنهم عنـدما اكتشـفوا منبـع السـعادة الحقيقية الدائمة هرعوا إليها، وتركوا تلك السموم التي كـانوا يتناولونها.

وهكـذا يـا بـني فعـل كـل أتبـاع الأنبيـاء الـذين نشـروا بالمناشير، وعلقت رؤوسهم على الرماح، وصـلبت أجسـادهم على الصـلبان.. نعم ربمـا يكونـون قـد فقـدوا بعض نشـوة الجسد.. لكنهم نعموا بالسعادة الأبدية، تلك التي وصفها اللـه تعالى، فقال: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ } [آل عمران: 169 - 171]

قارن هـؤلاء يـا بـني بأولئـك الـذين اسـتعجلوا.. فراحـوا يتوهمـون أن السـعادة في تلـك الأمـوال الـتي يكسـبونها، أو القصـور الـتي يبنونهـا، أو اللـذات الـتي يتجرعونهـا، والـتي سرعان ما يرتد عليهم سمها، ليسقيهم كل ألوان الشقاء.

لقد ذكر الله تعـالى ذلـك، ليكـون عـبرة للعقلاء، فقـال: { أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ} [الشـعراء: 205 ـ 207]

فتلك المتع المحدودة التي تمتعوا بها لسنين معـدودة، لا تفيـدهم شـيئا، ولا تغـني عنهم عنـدما يعـودون إلى حقيقتهم، فيجدونها مملوءة بالكدورات، ومستعدة لكل ألوان العذاب.

لا تحسب ـ يا بني ـ أن العذاب الذي يسلط عليهم يكون من طرف خـارجي.. كلا.. بـل إن أرواحهم هي الـتي تعـذب.. لأن الـروح نفخـة من اللـه .. وهي لا تسـعد إلا بلقـاء اللـه

والتواصل معه ومعرفته.. فمن حـرم روحـه من هـذه النعمـة العظمى، والسعادة الكبرى، شقيت في الدنيا قبل الآخرة.

بل إنك يا بـني لـو تـأملت كـل مطـالب أولئـك الغـافلين لوجدتها أنهم في حقيقتهم يبحثون عن اللـه.. ولكنهم يـتيهون عنه بتلك الأصنام التي يعبدونها من دونه..

فهم يبحثـون عن الخلـود الأبـدي.. وليس ذلـك إلا للـه، وبالله، ومع الله.. فكل ما عداه وهم وسـراب.. وهم يبحثـون عن الراحـة والسـلام والطمأنينـة، وليس ذلـك إلا في صـحبة الله..

وهكذا، فإنـك لـو تـأملت كـل شـيء وجدتـه عنـد اللـه.. ولذلك كانت السعادة في أن تكون مع الله، وفي كل الأوقات والأحوال..

وقـد روي أن معروفـا الكـرخي سـئل عن الهمـة الـتي دفعته إلى الإرادة والمجاهدة والتبتل، فسكت معروف، ليترك للسـائل مجـالا للتخمين، قـال السـائل: ذكـر المـوت، فقـال معروف: وأي شيء الموت؟ فقال: ذكر القبر والبرزخ، فقال: وأي شيء القبر؟ فقال: خوف النار ورجاء الجنة، فقال: (وأي شيء هذا؟ إن ملكاً هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا)

لقد ذكر الله تعالى ذلـك، وبشـر بـه، فقـال: {مَنْ عَمِـلَ صَـالِحًا مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَـاةً طَيِّبَـةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: 97]

وذكر الطمأنينة التي يجـدها المؤمنـون في صـحبة اللـه، فقال: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُـوبُهُمْ بِـذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِـذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28]

وذكر المصير السعيد الذي يصيرون إليه، فقال مبينـا مـا تقوله الملائكة للنفوس التي عاشت في صحبة الله: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِـيَّةً (28)

فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي} [الفجر: 27 - 30]

هذه يا بني هي السعادة الحقيقية.. وهي سعادة عبر عنها كل من وجدها وذاقها.. ومما يدلك على كونها الأكمل أن أكثر من ذاقوا هذا النوع من السعادة ذاقوا قبلها تلك السعادة الوهمية، وقد تبين لهم مدى الفرق الكبير بينهما.

لقد حدث بعضهم قال: وخرجت أنا وإبراهيم بن أدهم، وأبو يوسف الغسولي، وأبو عبد الله السنجاري، نريد الإسكندرية فمررنا بنهر يقال له نهر الأردن فقعدنا تستريح وكان مع أبي يوسف كسيرات يابسات، فألقاها بين أيدينا فأكلناها وحمدنا الله عز وجل، فقمت أسعى أتناول ماء لإبراهيم فبادر إبراهيم فدخل النهر حتى بلغ الماء إلى ركبتيه. فقال بكفيه في الماء فملأهما ثم قال: بسم الله، وشرب الماء ثم قال: الحمد لله، ثم إنه خرج من النهر فمد رجليه ثم قال: (يا أبا يوسف لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور لجالدونا عليه بالسيوف أيام الحياة)، فقلت: يا أبا إسحاق طلب القوم الراحة والنعيم فأخطأوا الطريق المستقيم. فتبسم وقال: (من أين لك هذا الكلام؟) [1]

لقد كان هذا الرجل الذي تحدث بهذه الكلمات من أصحاب الجاه والمال والسلطان، ولكنه عرف أن السعادة الحقيقية في صحبة الله..

وقد قال آخر معبرا عن ذلك شعرا:

إذا تاه الصديق	فته كبراً على ذاك
فإيجاب الحقوق	حقوقك رأس تضييع

[1] () صفة الصفوة (2/ 335)

هل تعـرف ــ يـا بـني ــ السـر الـذي جعـل أكـثر الخلـق يتثاقلون إلى الدنيا، ويضيعون طاقاتهم كلها في سـبيلها.. إنـه سبب بسيط، لكنه مع ذلك ضروري، لا تكتمـل حكمـة الحكيم من دونه..

إنه الغفلة عن كونها دنيا.. فهم يسمونها حياة فقط.. ولا يصـفونها بكونهـا حيـاة دنيـا.. ويتصـورون لـذلك أنهـا البدايـة والنهايــة.. وأنهــا الحيــاة الوحيــدة المتاحــة لهم.. ولــذلك يتنافسون فيها، ويتصارعون من أجل متاعها.. ويحـاولون كـل جهدهم أن يملأوا بطونهم من شهواتها التي لا تنتهي.

وهم في ذلـك يشـبهون الطفـل الصـغير الـذي يختصـر الحياة في لعبه؛ فيشغل كل وقته بها، وقد يصارع كـل شــيء من أجلهـا.. وقـد تعـرض عليـه الكنـوز في سـبيل أن يبيعهـا، فيرفض ذلك، لأنه يتوهم أن لعبه أغلى من كل شيء.

وهكذا كل من تراهم مستغرقين في الدنيا، ويتصـارعون من أجـل متاعهـا الزائـل.. إنهم لا يختلفـون كثـيرا عن ذلـك الطفل الصغير، فعقـولهم لا تختلـف عن عقلـه، وإن بـدا لهم أنهم كبار، وأن لهم من حدة الذهن والذكاء ما لا يملكه.

ولذلك تراهم يحنون إلى {الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَــاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الـذَّهَبِ وَالْفِضَّـةِ وَالْخَيْـلِ الْمُسَـوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ} [آل عمران: 14]، ويغفلون عن الصـدقات والصلوات والأعمال الصالحات.. لتوهمهم أن في ذلك المتـاع السعادة، وأن في تلك التكاليف المشقة.

مــع أن تلــك التكــاليف تحتضــن كــل ألــوان الســعادة والكمال.. فلولاها ما تحقق الإنسـان بحقيقتـه، ولا تـرقى في سلم الكمالات الذي أتيح له.. ولا نال فضل ربه من الـدرجات والحسنات التي لا يمكنه أن ينـال سـعادة الـدنيا والآخـرة من دونها.

لذلك كانت الشهوات عندهم أغلى من الحسنات.. مع أن جميع كنوز الدنيا ومتاعها ولهوها ولعبها لا يعدل حسنة واحدة.

ولذلك لم يختلفوا عن ذلك الطفل الصغير الذي يرفض أن يبيع لعبه بالأموال الكثيرة، لأنه لا يعرف قيمة الأموال بقدر معرفته بقيمة لعبه.. بل إن عقول أولئك أدنى من عقل ذلك الطفل الصغير؛ فالمسافة بين لعبه والأموال المعروضة عليه، وإن كانت كبيرة إلا أنه يمكن تقديرها، وتحديدها، وضبطها.. أما المسافة بين الشهوات والحسنات، فلا يمكن ضبطها ولا تحديدها بأي مقياس من المقاييس..

وهذه المعرفة ـ يا بني ـ ليست معرفة علمية فقط.. بل إن لها آثارها الكثيرة في الحياة جميعا.. بل لا يمكن أن يكون للحياة أي طعم دون معرفة كونها مجرد بداية، ومجرد حياة دنيا.

إن هذا يهون من شأنها كثيرا، ويجعل التعامل معها سهلا يسيرا.. وذلك يشبه من جُند للخدمة العسكرية الإلزامية؛ فهو قد يوضع في بعض المحال الصعبة، ويدرب بالتدريبات الشاقة، لكنه مع ذلك لا يصيبه الألم الكبير، لأنه يعلم أنها مجرد مرحلة محدودة، وسيتجاوزها عن قريب، لتعود له حريته، وحياته الطبيعية.. بخلاف من كان يرى أن بدايته فيها، ونهايته عندها.

ولذلك كان اعتقاد كون الدنيا مجرد حياة دنيا وحده كافيا للتهوين من شأنها، وتقبل الاختبارات التي توضع للإنسان فيها.

وهي نعمة عظمى لا يجدها أولئك الغافلون الذين ينهارون لأدنى شيء يقعون فيه، لأنهم يتوهمون أن في ذلك حتفهم، ونهايتهم المحتومة.

لا تتوقف آثار هذه المعرفة على هذا الجزاء العظيم فقط.. بل إن لها آثارها الكثيرة في التربية والترقية والتهذيب

والتصفية.. فالذي يعتقد أن هـذه الحيـاة مجـرد حيـاة دنيـا لن يتكـالب عليهـا، ولن يصـارع من أجلهـا، ولن يضـحي بأخلاقـه وقيمه في سبيلها.. ولن يضحي بآخرته لأجل متاعها الزائل.

ولذلك قال تعالى ــ بعـد ذكـره لمتـاع الحيـاة الـدنيا ــ : {ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْـدَهُ حُسْـنُ الْمَـآبِ (14) قُـلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْـوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران: 14، 15]

وهذه المعرفة ـ يا بني ـ هي التي تحمي المجتمعات من التفكك، وتحمي الدول من الصـراع، لأن الصـراع لا يكـون إلا بين من ضاقت عليهم الحياة، فاختصروها في الـدنيا.. ومثلهم في ذلك مثل من يتصارعون على قطـع محـدودة من الأرض، ولو أنه أتيح لهم منها ما لا حدود له، لما تصارعوا.

وهذه المعرفة ـ يا بني ـ هي الـتي تملأ الحيـاة بالسـلام، وبسـبب هـذه المعرفـة قـال ابن آدم الصـالح لأخيـه الـذي استولى عليه حب الدنيا: { لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَـدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَـا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْـكَ لِأَقْتُلَـكَ إِنِّي أَخَـافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَـالَمِينَ } [المائدة: 28]

وهذه المعرفة ـ يا بني ـ هي التي تحمي الفقـير من أن يحسد الغني، وكيف يحسده، وهو يرى في أمواله ومتاعـه مـا يـراه الكبـار في لعب الأطفـال.. بـل إنـه قـد يسـأل اللـه أن يحميه من الثراء الذي يصرفه عنه، أو الترف الذي يبعـده عن حقيقته.

وهذه المعرفة ـ يا بني ــ هي الـتي تملأ قلـوب أصـحابها سـعادة.. فهم ينظـرون إلى الحيـاة بنظـرة تفـاؤل وأمـل.. ويعتقدون أن المستقبل الذي ينتظرهم أجمل بكثير.. وأن مـا فـاتهم من متـاع الـدنيا لا يسـتحق أن يحزنـوا عليـه، لأن مـا ينتظرهم أفضل منه.

وهذه المعرفة ـ يا بني ــ هي الـتي تملأ قلـوب أصـحابها

بالهمة العالية، ليقتنصوا كل فرص الخير، ويقتنصوا معها كل ألوان الحسنات والدرجات التي هي أغلى من كل العملات الصعبة.. بل هي أصعب عملة في العالم.. ولذلك ترتقي نفوسهم وأرواحهم وعقولهم إلى المراتب العالية التي لا يمكن للمستغرقين في الحياة الدنيا أن يتوهموها، أو يصلوا إليها.

ولذلك ينتقل التنافس بين هؤلاء من التنافس على المتاع الزائل إلى التنافس على المتاع الحقيقي الذي ينتظر كل من تمكن من تهذيب نفسه وتطهيرها والترقي بها، قال تعالى في ذلك: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ } [المطففين: 22 - 26]

هذه بعض ثمار معرفة كون هذه الحياة البسيطة التي نعيشها حياة دنيا.. فهي دنيا بكل معانيها.. فنعيمها محدود بسيط مختلط بالكدورات.. والزمان فيها قصير.. والإنسان فيها متردد بين القوة والضعف، والصحة والمرض، لا يكاد يهنأ به عيش، أو يستقر له حال.

ولذلك كان أسعد الناس فيها من عاش بين جنباتها بقلب مملوء بالتعلق بالآخرة.. فجسده في الدنيا، وقلبه في الملأ الأعلى، يقتنص المكارم والفضائل، ويعيش عالم الأنس الذي لا يمكن أن يظفر به من انشغل بلهو الدنيا وعبثها.

لا أعجب من شيء يا بني، عجبي من هـوان الآخـرة في نفوس من سمع بشـأنها، مـع أنـه لا يوجـد نبـأ عظيم أهم ولا أخطر على البشر منها.. لكنهم مع ذلك يذكرونها من دون أن يتأثروا لها، أو تحدث شيئا جديدا في حياتهم.

وما ذلك إلا لضعف اليقين والإيمان، وإلا فإنهم لو عرفوا شـأنها، ومـا ينتظـرهم فيهـا لشـمروا عن كـل سـواعد الجـد، وأخذوا كتاب دينهم بقوة، وسعوا لتجنب كل ما ينتظرهم فيها من أهوال، وسعوا إلى الاستفادة من كـل فـرص النعيم الـتي تنتظر المجدين في شأنها.

مع أنهم في شؤون حياتهم القاصـرة المحـدودة يبـذلون كل جهودهم لتفادي أي شيء يضرهم، حتى لو كـان العلم بـه وهمي، أو الخوف منه وسوسة..

ألا ترى الدول كيف تشـتري الأسـلحة أو تصـنعها، وتضـع ميزانيات ضخمة لذلك، وتهـيئ جنـودا كثـيرين لمهمـة الـدفاع عن نفسـها، مـع أن ذلـك قـد لا يحصـل أبـدا.. ومـع أن تلـك الأسلحة قد تصبح بمرور الوقت غير ذات فاعلية، ومع ذلك لا تبالي في أن تصرف أموالها لأجل كل جديد يردع أعداءها.

وهكذا ترى الأفراد إذا مـا علمـوا بانتشـار وبـاء سـارعوا لتلقيح أنفسـهم عنـه، وإبعادهـا عن كـل مصـدر قـد يجعلهم مصابين بـه.. وتـراهم إذا مرضـوا يسـرعون إلى الأطبـاء، ولا يبالون بالأموال الـتي يصـرفونها، ولا بالراحـة الـتي يبـذلونها، لأجل تفادي أمراض قد لا يصابون بها أصلا.

لكنه إن ذكرت لهم الآخرة، وما فيها من العذاب الشديد الذي ينتظر المفرطين والمقصرين والمتجاوزين لحدود اللـه، تجـدهم لا يبـالون بـذلك، مـع أن آلام الآخـرة أشـد، وعـذابها أدوم.. ومع أن الالتزام بالشـريعة لا يكلفهم بمثـل مـا تكلفهم به تلك المصـالح البسـيطة الـتي يحـاولون بهـا الحـرص على

حياتهم.

وهكذا ترى أحدهم يسافر المسافات الطويلة، ويتغرب عن أهله السنوات العديدة، ويذوق في ذلك كل الآلام من أجل توفير مال لبيت يسكنه، أو محل صالح يعمل فيه.. لكنه إن ذكرت له قصور الجنة، وأنها قد تنال بأعمال صالحة بسيطة يقوم بها تجده يتهاون في ذلك، ولا يهتم به.

وما ذلك كله يا بني إلا بسبب ضعف الإيمان واليقين.. وإلا فلو أيقنوا بالآخرة، وعلموا ما ينتظرهم فيها من الأجر العظيم، أو العذاب الأليم، لجرت أعمال الخير في أيديهم بكل سهولة ويسر، ولتحولت حياتهم إلى تلك الحياة الكريمة التي جاء الرسل عليهم الصلاة والسلام للدعوة إليها، والتي لا يمكن تحقيقها إلا بتحقيق الإيمان.

فالفرق بين دعوات الأنبياء ودعوات غيرهم هي في هذا الجانب العظيم الذي يفتقده كل من لم يؤمن بالله ورسله.. فهم قد يدعون إلى الأخلاق والقيم النبيلة، وقد يكونون مثاليين في دعواتهم، لكنهم عندما يطالبون بذكر العوض عن تلك الجهود والمثاليات لا يجدون ما يذكرون؛ فلذلك يصادرون من يطالبهم بكلمات جوفاء لا تسمن ولا تغني من جوع.

لذلك حقق الإيمان بالآخرة في نفسك ـ يا بني ـ حتى تستقيم كل شؤونك.. فـ {الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [الأعلى: 17]، {وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يوسف: 57]

واجعلها منك رأي العين، حتى تعيش في الدنيا بنفس متطلعة للآخرة.. فإن عملت أي عمل، رأيت ما ينتظرك بسببه هناك.. فأنت تزرع هنا ما ستحصده هناك، وقد روي في الحديث عن عائشة قالت: ذبحنا شاة، فقال رسول الله ﷺ: ما بقي منها؟ فقلت: ما بقي منها إلا كتفها، فقال ﷺ: (بقي كلها غير كتفها) [1]

[1] الترمذى (4/644، رقم 2470)

فرسول الله ﷺ يشير في هذا الحديث إلى أن تلك الشاة التي تصدقوا بها جميعا إلا كتفها، قد بقيت مدخرة لهم في الآخرة، وأنه لم يفتهم منها إلا كتفها الذي أكلوه في الدنيا.

إن الذي يعتقد هذا الاعتقاد يا بني يجعل من حياته كلها مزرعة الآخرة، ليدخر هناك ما ينفعه.. وبذلك تستقيم حياته الدنيا بالبعد عن الترف والإسراف.. وتزداد علاقته بالخلق رسوخا لمساهمته في كل مشاريع الخير.. وهذا ما يجعل من الإيمان باليوم الآخر أكبر أداة للتنمية والإصلاح.

واعلم ـ يا بني ــ أن العارفين بربهم يعيشون الآخرة، قبل قدومهم عليها؛ فأجسادهم مع الخلق، وأرواحهم مع الله.. يعاينون كل ما حجب الخلق عن معاينته بسبب ذلك الران الذي طغى على قلوبهم.

وقد ورد في الحديث عن الحارث بن مالك الأنصاري، قال: مررت بالنبي ﷺ، فقال: (كيف أصبحت يا حارث؟) قال: أصبحت مؤمنا حقا. فقال: (انظر ما تقول؟ فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟) فقال: قد عزفت نفسي عن الدنيا، وأسهرت لذلك ليلي، واطمأن نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. فقال: (يا حارث عرفت فالزم)[1]

ولذلك تخاطب الملائكة أولئك الذين غفلوا أن يدركوا هذه المعاني بقولها: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق: 22]

فالغفلة التي سببها ضعف الإيمان، والحجاب الذي ران على القلوب بسبب المعاصي هي التي تمنع من تلك الرؤية، وذلك الشهود.. وإلا فإن كل من امتلأ قلبه بصدق ما جاء به الرسل، وعلم أنه يستحيل على من دبر هذا الكون بكل هذا

[1] () مصنف ابن أبي شيبة 6/ 170 ح (30425)، المعجم الكبير للطبراني 3/ 266 ح (3367)

النظام المحكم ألا يخصص دارا يجازي فيها عباده.. من علم هذا علم اليقين، يستحيل عليه ألا يعيش بقلبه ونفسه روحه عالم الآخرة قبل أن يقدم عليها.

وإن شئت مثالا لذلك يقرب لك ذلك يا بني.. فلك ذلك..

ألا ترى أن كل منشغل بشيء، يضعه دائما بين عينيه، حتى يشجعه ذلك على تحقيقه؟.. ألا ترى الطالب الذي يبذل كل جهوده في دراسته، ويتخلى عن الكثير من حظوظه وأهوائه وراحته، وكل ذلك لأنه يضع النجاح بين عينيه، ويعتبر مكسبا عظيما من مكاسبه.. ومثل ذلك التاجر والفلاح والعامل.. وكل أصناف الناس.. فهم يضعون أهدافهم بين أعينهم، وكأنهم يروا رأي العين، حتى يتيسر عليهم بذل الجهد في سبيلها.

وهكذا الأمر بالنسبة للآخرة، فمن اعتقد أنها مصيره ومستقبله.. وأن حياته فيها هي الحياة الحقيقية.. فسيسعى بكل جهده لتحقيق ما تتطلبه الحياة الجميلة فيها من مطالب.

ولذلك فإني مهتم بمستقبلك يا بني.. لا بمستقبلك في الدنيا فقط، بل بمستقبلك في الآخرة أيضا.. فهو المستقبل الحقيقي.. أما ما عداه فمكاسب محدودة.

والعجب من ذلك الوالد الذي يهتم بمستقبل ابنه الدنيوي، ثم لا يهتم بصلاته ولا بدينه ولا بتقواه، مع أن التفريط في ذلك سيحول بينهما في تلك الحياة الحقيقية..

ذلك أن الله تعالى أخبر أن الصالحين يعودون لأهلهم، وهم ممتلئون بالسعادة، لتستمر حياتهم هناك بمثل ما كانت عليه في الدنيا من السلام والطمأنينة، بخلاف غيرهم من الذين قصروا نظرتهم على الحياة الدنيا، واكتفوا بها، قال تعالى: { يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ

ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَـدْعُو ثُبُـورًا (11) وَيَصْـلَى سَـعِيرًا (12)
إِنَّهُ كَـانَ فِي أَهْلِـهِ مَسْـرُورًا (13) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُـورَ (14)
بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا} [الانشقاق: 6 ـ 15]

وقد أخبر الله تعالى أن أولئك الأقارب والأصدقاء الـذين كانت تجمعهم علاقات المودة في الدنيا، سـتنهار جميعـا، بـل يفر بعضهم من بعض، قال تعالى: {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (33)
يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ
(36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس: 33 - 37]

فإن شئت أن نلتقي هناك يا بـني في مقعـد صـدق عنـد مليك مقتدر، فعاهدني على أن تلتزم طاعة ربك، وتبتعــد عن كل مـا يبعـدك عنـه.. فـإن في ذلـك سـعادتك وسـعادتي في الدنيا، وفي الآخرة.

هذا الكتاب

يحاول هـذا الكتـاب توضـيح الكثـير من الحقـائق والقيم التي قد يقع الخطأ فيها، بسبب عـدم اعتمـاد الرؤيـة الكونيـة التوحيدية التي يدل عليها العقـل، كمـا تـدل عليهـا النصـوص المقدسة.

وهو يناقش تلك المغالطات الـتي تقـع فيهـا أمثـال تلـك العقـــول، بطريقـــة تجمـــع بين الخطـــاب العقلي والتـــأثير العاطفي.. فالكتاب عبارة عن وصايا من أب لابنـــه، ولا يمكن للأب أن يبلغ وصاياه من دون أن يمزج بين العقل والعاطفة.. فالعاطفـة تيسـر للعقـل اسـتقبال الأفكـار، حـتى لا يقابلهـا بالجدل.

وذلـــك لا يعـــني مـــا يُمـــارس في التـــأثير الخطـــابي من الاكتفاء بالتأثير العاطفي المجرد، فمعاذ الله أن تُبلغ الحقائق بعيدة عن أدلتها.. ولكن المـراد من ذلـك إبعادهـا عن الجـدل الذي يبحث على الانتصار، لا على الوصول إلى الحقيقة.

وهو يعتمد نفس منهج لقمان عليه السلام في موعظتـــه لابنه، والتي وردت في القرآن الكريم.. وورد فيهـا الكثـير من الحقائق التي تم عرضها بطريقة ممتلئة بالحكمة.

ولذلك فإن هـذا الكتـاب يحـاول إحيـاء سـنة لقمـان في الموعظة، حتى ينتهجه الآباء في تربيتهم لأبنـائهم، والأسـاتذة في توجيهاتهم لتلاميذهم وطلبتهم، ذلك أن المنـاهج الخاطئـة في تبليغ الحقائق قد تكون سببا للنفور منها.